*** تمهيد ***

الأوضاع السياسية في الوطن العربي والإسلامي

١٧٩٨- ١٩٢٨م

ـ إطلالة على القرن ١٩م والدولة العثمانية.

ـ حركة التتريك والتوجه القومي العربي.

ـ جمال الدين الأفغاني ودوره السياسي.

ـ عوامل ضعف الدولة العثمانية.. مقدمات ونتائج.

ـ الدولة العثمانية والحرب العالمية الأولى.

ـ دور العرب في الحرب العالمية الأولى.

ـ نتائج الحرب العالمية الأولى في المناطق العربية.

obeikandl.com

obeikandl.com

تمهيد

الأوضاع السياسية في الوطن العربي والإسلامي ١٧٩٨ – ١٩٢٨ م

حمل القرن التاسع عشر معه جرس إنذار للعالم الإسلامي.. وكان التوجه الاستعماري الأوروبي يعتمد عامل تفتيت الدولة العثمانية وتقسيمها بين الطامعين في أجزائها.. وإذا كان القرن ١٦م مصدر الإصلاح الديني في الغرب، فقد كانت نهايته بداية اتصال الغرب المسيحي بالشرق الإسلامي[1] وتمثل ذلك في دور الغرب في كشف موارد الثروة في الشرق، واستغلالها ونقلها إلى الغرب في صورة تبادل اقتصادي.. واستمر الاتصال بين الشرق والغرب ينمو حتى بلغ نفوذ الغرب المسيحي أوجه في الشرق وأصبح يمارس التوجه السياسي في الشرق الإسلامي، وزاد هذا النفوذ إلى أن وصل في منتصف القرن ١٩م حتى الربع الأول من القرن العشرين منتهى ما يصل إليه نفوذه القوي.

بدأ الاستعمار يعمل على اختيار وسائل عديدة منها اختراق الفكر الإسلامي والعمل على إضعافه وأدخل فكرة التقدم والتخلف في الشرق.. ومن المسؤول عنه؟.. ويتساءل هل هو الإسلام؟ أم القائمون عليه؟.. وبدأت الدراسات تعمل على البحث عن أسباب تقدم الغرب المسيحي وتخلف الشرق الإسلامي.. وعلى أساس ذلك أوجد الاستعمار شخصيات تقوم بالدور المطلوب، كحركة "أحمد خان بهادور"[2] في الهند..

---

1) د. محمد البهي : الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي، بيروت، دار الفكر، ط٥، ١٩٧٠، ص٢٠.

2) ولد "أحمد خان" في ١٧ أكتوبر ١٨١٧م، وتوفي في عام ١٨٩٨م.. ومن مؤلفاته : "حياة محمد" ١٨٧٠م، وتفسير القرآن الكريم ١٨٨٠م –١٨٩٥م إلى سورة الكهف.. وتفسير الإنجيل وسماه "تبيان الكلام" عام ١٨٦٢م [نقلاً عن : د. محمد البهي.. مرجع سابق، ص٤٠].

كانت بريطانيا قد ألقت بحبالها الاستعمارية على الهند، وشدت وثاق شعبها شداً قوياً، وكان للإسلام فيها دور مؤثر، من آثار السلطنة التيمورية ـ نسبة إلى تيمورلنك مؤسس دولة المغول في القرن ١٦م ـ في ذلك الحين كان يوجد ما يقارب من ستين مليوناً من المسلمين، وهؤلاء متصلون بملايين المسلمين في العالم.. صحيح أنهم توجسوا خيفة من الاستعمار، إلا أن المبادئ الإسلامية عملت على تضميد جرحهم من زوال سلطانهم من أرضهم.. وبدأ الإنجليز يعملون على التقليل من شأن المبادئ والأفكار الإسلامية من خلال نشرات، وكتب تقوم بالطعن في الديانة الإسلامية مفعمة بالشتائم لصاحب الشريعة الإسلامية.

وانتصر للاتجاه الإنجليزي "أحمد خان بهادور" وبدأ يبحث عن مكان بين الإنجليز، فقام بتفسير الإنجيل ليتقرب منهم، وحاول أن يثبت برأيه صحة التوراة والإنجيل وأنهما ليسا محرفين ولا مبدلين. وبالتالي لفت انتباه الإنجليز إليه، فأقامت بريطانيا له مدرسة في "عليكره" وسموها مدرسة المحمديين لتكون مقر تجمع للسياق الفكري الجديد الذي بدأ تأسيسه "أحمد خان بهادور" وأنشأ جريدة "تهذيب الأخلاق" لا ينشر فيها إلا ما يقلل من شأن الإسلام والمسلمين. ثم نادى برفض الأديان على اعتبار أنها سبب تخلف المتمسكين بها، وأن أوروبا لم تنجح إلا بالخروج من الارتباط بكهنوتية دينها المسيحي.

واتجه أحمد خان نحو مبدأ العلم الطبيعي والافتتان به، والحضارة الغربية المادية، ونهج في تفسيره للقرآن الكريم على تطبيق آياته على أساس طبيعي "مما يناقض تماماً القول بالمعجزات وخوارق العادات"[1]، ولهذا جعل النبوة

---

1) د. محمد البهي : مرجع سابق، ص٤٤.

غاية تحصل وتكتسب عن طريق الرياضة النفسية، فهي غاية إنسانية طبيعية وطريقها طريق إنساني غير خارق للعادة[1].

وامتداداً للنشاط الاستعماري البريطاني في مواجهة الإسلام، احتضنت بريطانيا شخصية أخرى هو "ميرزا غلام أحمد القادياني"[2]، وسجل مذهبه رسمياً في عام ١٩٠٠م وله أنصار في البنجاب وأفغانستان وإيران، وألف كتاباً سماه "براهين الأحمدية" وله آراء غريبة موغلة في الخرافة من ذلك قوله أن عيسى هاجر بعد أن بعث من موته الظاهري إلى كشمير في الهند، ليقوم بالدعوة هناك وأنه توفي وقد بلغ من العمر مائةً وعشرين عاماً، وقبره لم يزل موجوداً هناك. وادعى ميرزا غلام أنه (المهدي) (وأنه حل فيه عيسى ومحمد على السواء فهو نبي) [3]. وقد فسر الجهاد بأنه وسيلة إقناع لا حرب، وقد صرح ميرزا غلام في رسالة بعث بها للحكومة البريطانية في الهند يقول فيها : (لقد قضيت معظم عمري في تأييد الحكومة الإنجليزية ونصرتها وقد ألفت في منع الجهاد ووجوب طاعة أولى الأمر الإنجليز من الكتب والنشرات ما لو جمع بعضه إلى بعض لملأ خمسين خزانة)[4].

والحقيقة الغائبة أن العلوم التجريبية التي وجدت في أوروبا كانت وليدة صراع العقل والتجربة مع الدين والإيمان، ومع أن الدين يعتبر التفكير فريضة دينية في النظر للكون والحياة، إلا أن التجربة العلمية عندما ظهرت في أوروبا اعترضها القساوسة إبان النهضة الأوروبية واشتد النزاع بين رجال الدين ورجال العلم التجريبي، وأقيم لذلك "محاكم التفتيش" لمحاكمة علماء

---

1) المرجع نفسه، ص٤٤.

2) من منطقة قاديان بإقليم البنجاب.. وقد توفي عام ١٩٠٨م.

3) د. محمد البهي، مرجع سابق، ص٤٧.

4) من كتاب ترياق القلوب، ص١٥ : تأليف : ميرزا غلام أحمد القادياني (نقلاً عن : د. البهي، مرجع سابق، ص٤٩).

البحث العلمي التجريبي، وعوقبوا عقاباً شديداً، وتم التنكيل بكبار العلماء بدون رحمة.. ومع ذلك فقد بقيت جذوة الصراع لصالح العلم إلى أن سيطر فكر الحركة العلمية في البلاد.. وذهب تيار الحركة العلمية الأوروبية باقتلاع السلطة الدينية.

ومع مطلع القرن ١٩م بلغت النزعة المادية منتهاها على يد مجموعة من الفلاسفة الأوروبيين مثل (فوغت) و (بوخنر) و (زولبي) و(كومت) و(مولشات) ومن هم على شاكلتهم من الفلاسفة وأنكروا وجود كل شيء ما خلا المادة وخصائصها.. وقام (Mill مل) بإشاعة المذهب التجريبي والمذهب النفعي في الأخلاق.. وعرض سبنسر Spencer بكل قوة وشدة (النظرية القائلة بحدوث هذا الكون بدون خالق، وبظهور هذه الحياة من تلقاء نفسها.. وجاءت موجة الاكتشافات العلمية في مختلف العلوم والفنون كعلوم الحياة Biology، والعضويات Physiology، والحيوان Zoology، وطبقات الأرض Geology[1].

وأحدَثَ كتاب " أصل الأنواع" لداروين (Origin of aspics) الذي ظهر عام ١٨٥٩م انقلاباً كبيراً في بنية الفكر الأوروبي حيث تقول النظرية "أن الآلية الحية التي كانت في بداية أمرها دوداً يدب، قد أصبحت بفعل العوامل المختلفة كتنازع البقاء أو بقاء الأصلح، والانتخاب الطبيعي إنساناً ناطقاً ذا إحساس وشعور"[2].

من جانب آخر عرفت موسوعة علمية نظرية الارتقاء : " بأنها نظرية قائمة على تفسير بدون براهين"[3] إذاً كيف يجوز لنا أن نعتبر نظرية داروين حقيقة علمية بالرغم من أنها لم تخضع لتجربة علمية معملية؟

---

1) أبو الأعلى المودودي : نحن والحضارة الغربية، الدار السعودية للنشر والتوزيع، ١٩٨٤م، ص٢٢.

2) نفس المرجع : ص٢٣.

3) Revolt Against Reason, pp. 111-112.

اتسعت دائرة البحث العلمي الاستشراقي الأوروبي إلى إعلان الطعن في الإسلام فالديانة المسيحية من خصائصها كما يرون ترقية الإنسان بتقريبه من الحضرة الإلهية، أما الإسلام فهو دين مشوب بتأثير مذهب السامية التي تنحط بالإنسان إلى أسفل الدرك وترفع الإله عنه في علاء لا نهاية له[1]. فالمسيحي يذهب في الأصل إلى الثالوث، بمعنى أن الإله الأب أوجَدَ الإله الابن واتصل الاثنان بصلة هي روح القدس، وعليه فيكون يسوع المسيح إلهاً وبشراً ويساعد هذا الإله على محو ذنب الجنس البشري ويفديه من الخطيئة التي اقترفها، الأمر الذي يرفضه المسلم الذي يعتقد بوحدانية الإله ويتمسك بهذا الاعتقاد فالشراكة كفر والوحدانية إيمان لذلك يقول المسلم لا إله إلا الله.

ويصور مستشرق آخر [2] مبدأ : "الزكاة : إن الأموال المادية ــ في نظر الإسلام ــ هي من أصل شيطاني نجس ويحل للمسلم أن يتمتع بهذه الأموال شريطة أن يطهرها وذلك بإرجاع هذه الأموال إلى الله". أما قوامة الرجل على المرأة، فيتفق بعض المستشرقين على أن ذلك نوع من التفوق ويجعل منه علامة على نظرة الإسلام إلى وضع كل من الرجل والمرأة في الحياة (فهو يسمو بالرجل إلى ذرى الرفعة بينما يهبط بالمرأة إلى هاوية الضعة.. أما طاعة المرأة للرجل فهو نوع من الإذلال). يرى بعض من المستشرقين في مبدأ عدم قبول المسلم لولاية الأجنبي نوعاً من عدم التعاون مع الشعوب الأخرى.. أما مبدأ "الجهاد" فهو اعتداء المسلمين على من يعارضهم، واكتسب الجهاد صبغة شرعية ودينية ويرون أن ذلك يؤدي إلى أثر سيئ في علاقة الشعوب الأوروبية بالمسلمين.

---

1) د. محمد البهي : مرجع سابق، ص٥٥.

2) فيليب فوانداس : دراسة عن الإسلام في أفريقية السوداء، نقلاً عن : د. محمد البهي : مرجع سابق، ص٥٧.

أما مبدأ عدم زواج المسلمة بغير المسلم فتعد لديهم فكرة عنصرية قائمة على التمييز بين المسلمين وغيرهم من الشعوب، ويرون أيضاً في مسألة العودة إلى "القرآن الكريم" وإلى عصر الصحابة الأول رضوان الله عليهم هي العودة إلى الحياة البدائية، والإصلاح في نظرهم هو التطور والأخذ بأساليب المدنية الحديثة، والقوانين المعاصرة، وأسلوب الحكم الحديث، وهكذا نلاحظ أن الدراسات الاستشراقية قد حاولت جاهدة استبعاد الإسلام ومبادئه كدين ودولة وأن الأخذ بمناهج الأوروبيين هو الطريق الأمثل للتقدم.

إطلالة على القرن ١٩م والدولة العثمانية:

في ما بين (١٢٨١- ١٣٢٤م) تكونت إمارة آل عثمان في شمال غرب الأناضول وعلى حساب الدولة البيزنطية التي توسعت رقعتها.. وكان يرفدها تركمانيون من الشرق فتقوى بهم، وسقطت بأيدي الأتراك العثمانيين مدن مهمة مثل : بروسة ونيقية ونيقوميديا، وفي النصف الثاني من القرن ١٤م عبر العثمانيون من آسيا الصغرى إلى البلقان، واتجهوا غرباً ونقلوا عاصمتهم إلى "أردنة" عام ١٣٦٦م، وفي عهد بايزيد ١٣٩٨- ١٤٠٣م توسعت دولتهم وتم تشكيل جيش سمى "الإنكشارية" والذي أصبح قوة ضاربة فيما بعد.. وخضعت أنقرة للسلطان بايزيد، وفي عام ١٤٢٢م دارت معركة بين بايزيد وتيمور، تم أسر بايزيد فيها، وتوفي أثناء الأسر.

وبمجيء محمد الثاني ١٤٥١ ـ١٤٨١م الذي حقق نصراً على أمبراطورية بيزنطا واستولى على عاصمتها القسطنطينية عام ١٤٥٣م وأصبحت عاصمةً للدولة العثمانية حتى نهايتها وقيام الجمهورية، ومع مطلع القرن ١٦م إلى القرن ١٨م دفع العثمانيون عن العرب خطر الزحف البرتغالي والأسباني في خليج البصرة والبحر الأحمر وحوض البحر المتوسط، واستولت الدولة العثمانية على بلاد الشام عام ١٥١٦م وعلى مصر والحجاز واليمن عام ١٥١٧م

(وكانت وشيجة الدين من أقوى الوشائج التي ربطت الجماهير العربية بالدولة العثمانية، فأخلصوا لها واشتركوا في حروبها ضد التكتلات الأوروبية)[1].

ونجحت الدولة العثمانية في تحقيق وحدة الديار العربية في ظل نظام يقوم على مبادئ الشرع الإسلامي، وعلى أساس المذاهب السنية الأربعة : الحنفي، والحنبلي، والمالكي، والشافعي. وفي أواخر القرن ١٨م عام ١٧٩٨م شهدت مصر غزواً فرنسيا، والتحمت قوى الشعب المصري والمماليك والقوى العثمانية في مواجهة الفرنسيين، وتم إخراج نابليون بونابرت وعساكره من مصر.

ومن أثر التفاعل العربي العثماني إعلان السلطان سليم الثالث (١٧٨٩-١٨٠٧م) الجهاد الديني ضد الفرنسيين، فاستجاب لدعوته الكثير من عرب اليمن والحجاز والشام، وشمال أفريقيا.. لدرجة كما تشير بعض المراجع[2]، أن رجلاً قدم إلى مصر من طرابلس الغرب لقب نفسه بالمهدي ودعا لقتال الفرنسيين، وانضم إليه بعض القبائل من أولاد علي، والهنادي وغيرهم من سكان القرى التي مر بها. وفي دمنهور نجحوا في إبادة الحامية الفرنسية بها.. وحاربوا الفرنسيين في مواقع أخرى وهزموهم.

وفي النصف الأول من القرن ١٨م شهدت الجزيرة العربية ظهور دعوة محمد بن عبدالوهاب خاصة بعد تأسيس الدولة السعودية الأولى، ونجاح آل سعود في اجتياح مكة عام ١٨٠٦م معلنين خلع ولائهم للسلطان العثماني، فكلف الوالي العثماني بمصر ابنه "طرسون" في عام ١٨١١م إلى الحجاز لقمع المتمردين في الحجاز ولم ينجح فتوجه محمد علي باشا بنفسه عام ١٨١٥م إلا أن السلطان العثماني رفض الصلح فبعث محمد علي باشا قوة على رأسها ابنه

---

1) د. أكمل الدين إحسان أوغلي : العرب في ظل الرابطة العثمانية، نقلاً عن : (العلاقات العربية التركية)، من منظور تركي، ج٢، مصر، معهد البحوث والدراسات العربية، ١٩٩٣م، ص٩٥.

2) أكمل الدين إحسان أوغلي : مرجع سابق، ص٩٧- ٩٨.

إبراهيم باشا، ونجح في عام ١٥١٨م في القضاء التام على قوى التمرد والقبض على الأمير عبدالله بن سعود الذي تم إعدامه في اسطنبول.

ويُعدُّ خروج آل سعود عن العثمانيين بداية ضعف العثمانيين.. وكان سليم الأول قد شعر بهذا الضعف فبدأ في إصلاح نظام إدارة الحكم، ونشر العلوم الجديدة، وتنظيم الجيش على أسس حديثة وترويج الآلات الحربية الأوروبية.. وتشير الباحثة التركية خالدة أديب خانم[1] إلى أن الصوفية الجهال والعلماء الرجعيين ممن ليس لهم نصيب من علم الدين وروحه قاموا يعارضون إصلاحات السلطان، فجعلوا تنظيم الجنود على الطريقة الغربية في حكم اللادينية، وجعلوا لبس زي الجندي الحديث في حكم التشبه بالنصارى، وقد خالفوا حتى استعمال البنادق ذات الحراب لأن استعمال أسلحة الكفار عندهم إثم عظيم.. أساؤوا سمعة السلطان سليم وبثوا النفرة منه في نفوس الجمهور بقولهم إنه يسيء إلى الإسلام بترويجه أساليب الكفار.

فأفتى شيخ الإسلام عطاء الله أفندي أن السلطان الذي يعمل بخلاف القرآن غير جدير بالبقاء على العرش. وفي آخر المطاف عزل السلطان سليم في عام ١٨٠٧م، وتبع السلطان سليم السلطان محمود في الحكم فحاول الإصلاح وبصعوبة تمكن السلطان في عام ١٨٢٦م من ترويج التنظيم العسكري الجديد في تركيا.

وأقبل السلاطين العثمانيون.. دعاة الإصلاح على إرسال بعثات دراسية إلى أوروبا وخاصة فرنسا وألمانيا.. وعند عودتهم وجدوا أنفسهم في وضع متخلف وعليهم تغييره وفقاً لما لمسوه في أوروبا من حريات اجتماعية وسياسية وحياة عمرانية متقدمة، بدؤوا يعملون بسرية على اتخاذ مواقف مناهضة للوضع

---

1) محاضرة ألقتها الباحثة التركية في الجامعة الإسلامية في الهند "حول النزاع بين الشرق والغرب في تركيا" ضمن كتاب : أبو الأعلى المودودي، نحن والحضارة الغربية، مرجع سابق، ص١١٩.

السياسي الحاكم وتمكنوا من تكوين جمعيات وأحزاب سرية لمجاراة الأمم الأوروبية، ويطلق على الفترة التي حققت الدولة العثمانية فيها قدراً من النجاح في التنظيمات الإصلاحية الإدارية والعسكرية "عهد الإصلاحات".. وكان السلطان محمود الثاني ١٨٠٨- ١٨٣٩م الذي ينسب إليه إلغاء النظام الإنكشاري، والاستعاضة عنه بجيش على النظام الأوروبي الحديث واستخدامه لاستعادة السيطرة المركزية على الولايات العثمانية التي خرجت عن نفوذ الدولة العثمانية باسطنبول.

من الملاحظ أن القرن التاسع عشر الميلادي حمل معه تطورات انعكس أثرها على العلاقات العربية التركية أضف إلى ذلك كانت التأثيرات الأوروبية قد اتضحت من خلال الحركات التحديثية التغريبية على العرب وعلى الاتجاهات الفكرية والسياسية لدى العثمانيين أيضاً[1].

ويمكن القول إن حركة الإصلاح في الدولة العثمانية تعد بداية تدهور للعلاقات العربية التركية، وبحكم الضغوط الخارجية فقد اندفعت في السير في الإصلاحات أو "حين بدأت تتكشف أمام المصلحين الأتراك مساوئ النظام الأوتوقراطي الذي قامت عليه الدولة وأصبح واضحاً أن الأمبراطورية العثمانية كانت تتحرك بسرعة في طريق التفكك والانهيار ما لم تتخذ خطوات إيجابية لإدخال دماء جديدة في تنظيماتها العسكرية والسياسية وفي إدارتها الداخلية" [2].

لقد كانت الدولة العثمانية الجدار الذي أخر اجتياح الغرب الاستعماري الطامح للوطن العربي، إلا أن العثمانيين المتأخرين خرجوا عما تعارف عليه من سبقوهم، وبدأوا يتعصبون للغتهم وأعراقهم، وأخذوا باحتقار العرب والعروبة..

---

1) د. جمال زكريا قاسم : الخروج العربي عن الدولة العثمانية، ضمن كتاب : العلاقات العربية التركية من منظور عربي، ج١، ١٩٩١م، مصر، معهد البحوث والدراسات العربية، ص١٦٣.

2) نفس المرجع : ص١٦٣.

وفي الأخير راودتهم أحلام تتريك العرب. أدى ذلك إلى زوال سلطتهم المترامية الأطراف وبدأ الاستعمار يشجع طرفي النزاع من أجل تثوير الموقف فيقوم بالهجوم الأخير على الأراضي العربية.. وزاد ذلك من ضعف الدولة العثمانية حتى أضحى الجدار العثماني أمام الغرب آيلاً للسقوط .. ولقد كانت الامتيازات الأجنبية التي منحتها الدولة العثمانية للأوربيين بداية النهاية لآل عثمان، تعود تلك الامتيازات إلى ما تم بين آل عثمان، والبندقية عام ١٥٢١م، ومع فرنسا عام ١٥٧٩م، وإنجلترا عام ١٥٧٩م، وهولندا عام ١٥٩٨م، وروسيا القيصرية عام ١٧٠٠م، والسويد عام ١٧٣٧م، ونابولي عام ١٧٤٠م، والدنمارك عام ١٧٥٦م، وبروسيا عام ١٧٦٧م، وأسبانيا عام ١٧٨٢م، والولايات المتحدة الأمريكية عام ١٨٣٠م، وبلجيكا عام ١٨٣٧م، والبرتغال عام ١٨٤٣م، واليونان عام ١٨٥٤م[1].

وتطورت العلاقات العثمانية الأوروبية إلى حد زيادة النفوذ الاستعماري الأوروبي في الدولة العثمانية، وفرضت هذه الدول الأوروبية، العديد من التنازل عن الكثير من ولاياتها، بعد أن تحول هذا النفوذ الاستعماري إلى احتلال أجنحة العالم العربي عندما احتلت فرنسا الجزائر عام ١٨٣٠م، واحتلال بريطانيا "عدن" ١٨٣٩م، واحتلال فرنسا لتونس ١٨٨١م، واحتلال بريطانيا لمصر عام ١٨٨٢م. كانت السياسة العثمانية في الولايات العربية عبثية وغير موفقة، وبوجه خاص مصر والحجاز واليمن.

ولذلك كانت الانتفاضة المحلية ضد العثمانيين، وتأدلجت الإنتفاضة في اليمن على يد دعاة الأئمة الزيدية وأخذ الصراع في اليمن بعداً طائفياً بين الزيدية الشيعية والسنة العثمانية، وفي الحجاز على أساس عرقي عندما طالب

---

1) د. محمد عمارة : فجر اليقظة القومية، القاهرة، دار الثقافة العربية، ط٢، ١٩٧٥،٢م، ص٣٦٩-ص٣٧٠.

محمد بن عبدالوهاب (١٧٠٠- ١٧٩٢م) بإسقاط الدولة العثمانية وتبني فكرة "القرشية" بمعنى إقامة دولة عربية[1].

وظهرت حركة خروج عن السيطرة العثمانية مناهضة للاستعمار الأوروبي في ليبيا والجزائر ومصر ممثلة بالحركة السنوسية نسبة إلى مؤسسها محمد بن علي السنوسي عام (١٧٨٧- ١٨٥٩م) وقامت على أساس التجديد في روح الفكر الإسلامي وامتزج فيها الفكر السلفي والصوفي، أما حركة الثورة المهدية التي ظهرت في السودان على يد مؤسسها محمد أحمد المهدي (١٨٤٤- ١٨٨٥م)، فقد كانت كرد فعل لسلبية مقاومة الاستعمار الأوروبي، من قبل السلطة العثمانية، فحددت المهدية هدفها الذي تمثل بالثورة على الأتراك.. وكان المهدي يقول لأنصاره : "إن النبي صلى الله عليه وسلم قد حرضني على قتال الترك.. وجهادهم، فالترك لا تطهرهم المواعظ، بل لا يطهرهم إلا بالسيف"[2].

والملاحظ أن حركة ابن عبدالوهاب، وآل سعود كانت تحمل في طياتها ثقل البداوة والعصبية الماضوية، فقد كان مشروعها النهضوي تجاه الدولة العثمانية فاشلاً، ولم تتبين فكرة مواجهة الاستعمار الأوروبي الذي هو في صراع مع العثمانيين، ويحاول اقتلاع جذورها ليقوم بالسيطرة على مواقع آل عثمان في الساحة العربية.

---

1) د. محمد عمارة : الجامعة العربية.. والجامعة الإسلامية (ندوة) القومية العربية والإسلام، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط١، ١٩٨١،ص١٤٩م.

2) محمد إبراهيم أبو سليم : منشورات المهدية [بيروت : د. ن]، ١٩٦٩م، ص٧٤، ص٣٣١- ص٣٣٢، نقلاً عن: د. محمد عمارة، المرجع السابق، ص١٤٩.

حركة التتريك والتوجه القومي العربي:

عندما وصلت الدولة العثمانية إلى مرحلة التشبع في اتساعها واستكملت عناصر قوتها وعظمتها بدأت تدخل دور التدهور.. ويعود ذلك إلى عوامل داخلية تمثلت بضعف السلاطين العثمانيين بعد سليمان القانوني، والذين كانوا يفتقرون إلى دراية لاحتياجات الدولة العثمانية، وكذلك انتشار الفساد الإداري والمالي وخاصة في مسألة جمع الضرائب.. إلى جانب ضعف دور الإنكشارية والذين كانوا يكونون العمود الفقري للنظام العثماني العسكري.

العامل الثاني يتمثل بالشأن الخارجي، فقد كانت الدولة العثمانية تمثل قوة عسكرية ضاربة ترهب الدول الأوروبية.. وحين أخذت الدول الأوروبية منذ القرن السادس عشر الميلادي تتحول إلى رأسمالية اقتصادية وصناعية، وبالتالي بدأ ميزان القوى يشكل قوة راجحة في صالح الدول الأوروبية.

وبدأ السلاطين العثمانيون يبحثون في أجندتهم على الكيفية التي يمكن أن تؤدي إلى نهضتهم وخاصة عندما بدأ الاستعمار يتغلغل في أطراف الدولة العثمانية، فبدؤوا العمل باتخاذ إجراءات إصلاحية تمثلت في تنظيم الجيش وتسليحه، والنظام الإداري على الطريقة الأوروبية[1] وإرسال البعثات إلى أوروبا والاتجاه نحو مركزية السلطة في العاصمة والولايات التابعة لها.

وعند عودة المبعوثين من أوروبا بدأوا يعملون على إيجاد تجديد في بنية النظام العثماني من خلال تجمعات حزبية.. فأنشأوا جمعية الاتحاد والترقي عام ١٨٩٤م، وكان برنامجهم السياسي يتمثل بتحويل الدولة العثمانية إلى دولة دستورية.. ويعد ذلك أهم مطلب سياسي ناضلوا من أجله.. واتبعوا من أجل

---

1) د. محمد أنيس: الدولة العثمانية والشرق العربي ١٥١٤- ١٩١٤م، القاهرة، مكتبة سعيد رأفت، ١٩٧٧م، ص٢١١.

ذلك تكتيك حبك المؤامرات، إلا أن السلطان عبد الحميد نجح في كشف جزء من المنظمات السرية لتركيا الفتاة[1] ، وأقيمت محاكمة لهؤلاء في الفترة بين ١٨٩٧ و١٨٩٩م فغادر أنصارهم إلى خارج تركيا.

ومن الملاحظ أن تركيا قد عرفت حركة علمية على الطراز الأوروبي.. فقد دشنت العاصمة اسطنبول مدارس عليا للطب والعلوم والإدارة والتربية، كما افتتحت في مصر مدارس للطب والهندسة وللحقوق.. وفتحت تركيا أبوابها للإرساليات الأجنبية المختلفة "كاثوليكية" و "إنجيلية" ومدارس في فلسطين ولبنان وسوريا، وأنشأت معاهد للتعليم العالي في بيروت "الكلية السورية الإنجيلية" الجامعة الأمريكية فيما بعد عام ١٨٧٥م، وأنشأت صحف يومية في مصر وهي "الأهرام" و "المقطم" وفي بيروت صحف ومجلات علمية أخرى[2].

وكانت الدولة العثمانية في بداية عهدها مع العرب ابتداءً من القرن السادس عشر الميلادي لم يكن التمايز واضحاً بين العرب والعثمانيين، وبالتالي كانت الدولة العثمانية متعددة القوميات والمذاهب، وكان الجميع يعيشون في "دار الإسلام" والتي حمتهم قروناً طوالاً من التحديات الخارجية.. كان السلطان يحمل لقب "أمير المؤمنين" و"خليفة الرسول" ولما كانت مصادر الشرع الإسلامي كلها عربية، كانت لغة الضاد هي اللغة الرسمية في المحاكم الدينية والقضاء في كل الولايات العربية.. وكانت المدارس الدينية في كل من مصر وبلاد الشام واليمن هي التي تخرج علماء الدين والفقهاء وتمد الجهاز القضائي العثماني بعموده الفقري.. أيضاً لم يغب العرب عن

---

1) لوتسكي : تاريخ الأقطار العربية الحديث، بيروت، دار الفارابي، ط٧، ١٩٨٠م، ص٣٩٤.

2) د. نقلولا زيادة : الحساسيات القومية والسياسية أواخر العهد العثماني، مجلة الاجتهاد، العدد ٤٥و٤٦، شتاء وربيع ٢٠٠٠، بيروت، دار الاجتهاد، ص٢١٩.

الإدارة العثمانية والالتحاق بالجيش وشغل الكثير منهم وظائف عالية فيها، كان العرب والأتراك إخواناً في الدين هويتهم العثمانية[1].

ويبدو أن مسألة الانتماء القومي لم تكن مطروحة كفكر في المشرق العربي في القرن الثامن عشر، إلا أن الثورة الصناعية في أوروبا، والفساد الإداري والمالي والعسكري في الدولة العثمانية، والثورات القومية البلقانية من يونانية وصربية وبلغارية.. وحصولها على الاستقلال أدى ذلك إلى تسرب الأفكار الأوروبية والوطنية، ابتداءً من عهد حملة نابليون بونابرت على مصر عام ١٧٩٨م، أضف إلى ذلك حركة الهجرة إلى الخارج وانتشار التعليم الأوروبي في جبل لبنان ومدينة بيروت[2].

وقد أضافت الظروف المحيطة بالعالم العربي من تدخلات أجنبية، تبلورت عن موقف عربي مقاوم للاستعمار في كل من مصر والمغرب العربي، وقد اختلفت ملحمة المواجهة للاستعمار حيث ظهرت جمعيات علنية وسرية ذات أهداف إصلاحية تداخلت واختلطت فيها وسائل المواجهة سواء كانت سياسية أو أدبية فكرية.

وبدأ السلاطين ينظرون إلى الجانب الإصلاحي كمسألة تحد، لذلك يقال إن السلطان محمود الثاني عندما بدأ بجدية في الإصلاحات الاجتماعية والسياسية، برر ذلك بقوله: "أنا أعرف المسلمين في الجامع، والمسيحيين في الكنائس، واليهود في المعابد، وخارج أماكن العبادة، أود أن يتمتع كل فرد بحقوق سياسية متساوية، وبحمايتي الأبوية".[3]

---

1) د.برهان غليون: نهاية عصر الدولة الوطنية، مجلة أبعاد (العدد الثالث، مايو، ١٩٩٥، بيروت، المركز اللبناني للدراسات)، ص٢٦٠.

2) نفس المرجع السابق: ص٢٦٠.

3) د. محمد أنيس: مرجع سابق، ص٢١٤.

وفي الجانب الاقتصادي وبحكم الامتيازات التجارية التي منحتها الدولة العثمانية للدول الأوروبية، فقد تدفقت السلع التجارية الأوروبية، وخاصة المنسوجات إلى الدولة العثمانية في أواخر القرن الثامن عشر الميلادي، مما أدى إلى كساد المنسوجات والسلع المحلية العثمانية، لأن السلع المنافسة صحبتها دعايات إعلانية مما جعلتها منافسة قوية للصناعات المحلية.. وكان الوسطاء لهذه السلع من اليهود والمسيحيين وتمتعوا بحماية أوروبيةعلى الرغم من أنهم من رعايا الدولة العثمانية.. وبرز الوسطاء كطبقة في القرن التاسع عشر وسموا "بفرنجة المياه العذبة" تمييزاً لهم عن الفرنجة الأوروبيين.

من جهة أخرى أوجدت حركة الإصلاحات شرخاً في العلاقات بين المسلمين والمغايرين لهم في الدين، فإعلان المساواة بين المسلمين وغير المسلمين كان مبدأ مطاطاً ولم يكن له أثر معقول.. لأن الحكومة لم تستطع القيام بتطبيق هذا المبدأ المعلن عنه، حيث ظلت الخدمة العسكرية قاصرة على المسلمين دون غيرهم بينما يفرض على غيرهم من الأقليات الدينية دفع الجزية.. كذلك ظلت الوظائف العامة بصفة عامة وخاصة الوظائف الإدارية الهامة والقضائية محصورة في يد المسلمين، وهكذا أدت التنظيمات إلى زعزعة نظام الملل دون أن تقوم بدمجها في كيان المجتمع العثماني دمجاً تاماً.. فأصبحت هذه المؤسسات الدينية مجالاً نشطاً للثقافة الأوروبية، والمفاهيم الإصلاحية الدينية والسياسية.. وانعكست تلك المفاهيم الثقافية الجديدة على بلاد الشام حيث تتجمع فيها أكثرية من الأقليات المسيحية، واتجه هؤلاء إلى الدول الأوروبية يطلبون الحماية منها، والتأييد في مبدأ الاستقلال.. عكس المسلمين الذي اتجهوا إلى السلطة العثمانية من أجل الحصول على المزيد من الحقوق والواجبات[1].

---

1) د. محمد أنيس : مرجع سابق، ص٢١٦.

وكانت تلك التنظيمات الإصلاحية تهدف إلى إعادة القوة المركزية للدولة العثمانية، وبالتالي بدأت السياسة العثمانية تعمل على تركيز قوة نفوذها في الولايات العربية.. واتخذ العثمانيون نهجاً سياسياً جديداً تمثل في تبني السلطان عبد الحميد الثاني فكرة الجامعة الإسلامية، ليضمن التفاف العالم العربي حول الدولة العثمانية، ومنذ أواخر القرن الثامن عشر الميلادي بدأ العالم الإسلامي يموج بحركات بعث وإحياء دينية قوية جاءت كرد فعل للحركات العلمانية التي بدأت تباشيرها في العالم الإسلامي، وكذلك اعتداءات الدول الأوروبية على أجزاء من هذا العالم[1].

كانت تلك الحركات الإسلامية على اختلافها لها مواقف من الحركات العلمانية، وتمثلت مواقفها بالسلبية، والدعوة إلى العودة للأصول الإسلامية، الأولى : كالحركة الوهابية في الحجاز أو السنوسية في شمال أفريقيا أو المهدية في السودان، إلا أن هذه الحركات خلقت أثراً فكرياً دينياً رغم فشلها سياسياً.

جمال الدين الأفغاني ودوره السياسي :

وجد لفكرة الجامعة الإسلامية من يقوم بتعضيدها وتأييدها بقوة، هو المفكر الإسلامي جمال الدين الأفغاني (١٨٣٠- ١٨٩٧م) وفي عهده كان الاستعمار الأوروبي قد اجتاح الكثير من بلدان العالم الإسلامي، وكان يحاول وقف هذا الزحف الاستعماري الأوروبي، فكانت فكرة الجامعة الإسلامية تدعو إلى وحدة الصف الإسلامي شعوباً وحكومات للوقوف أمام التيار الزاحف من الاستعمار[2].

---

1) نفس المرجع : ص٢٣٨.

2) د. محمد أنيس : المرجع السابق، ص٢٣٩.

وبينما كانت الحركة الوهابية السلفية المتعصبة.. والسنوسية والمهدية يحملان مفاهيم صوفية وكلها تتجه لمحاربة الدولة العثمانية.. كانت حركة "الجامعة الإسلامية" تدعو إلى ضرورة وحدة صفوف المسلمين شعوباً وحكومات للوقوف صفاً واحداً لمواجهة الزحف الأوروبي.

واتخذ الأفغاني لنفسه منبراً تمثل بجريدة "المنار" في القاهرة يدعو لرأب الصدع بين الأمة الإسلامية، والابتعاد عن الخلافات المذهبية والالتفاف حول مفهوم دعوي وحدوي من خلال الجامعة الإسلامية من أجل الوقوف في مواجهة العدوان الأوروبي، وفرض هيمنته ونفوذه على العالم العربي.. فالأفغاني كان يرى أن الأوروبيين يعملون على مقاومة ومناهضة الإسلام وأن الصليبية الأوروبية تحمل ثأراً على العالم الإسلامي.. والمسيحية تنظر إلى الإسلام نظرة عداء وحقد وتعصب ديني ممقوت.. ولذلك تكرس جهودها للقضاء على كل حركة حاولها المسلمون في بلادهم وديارهم في سبيل الإصلاح والنهضة.. وهذا ما يدعو العالم الإسلامي أن يتحد اتحاداً دفاعياً عاماً للذود عن كيانه ووقاية نفسه من القضاء المقبل. من أجل ذلك على المسلمين : "اقتفاء تقدم الغرب والوقوف على تقدمه وقدرته"[1].

وفي ظل هذا المخاض الفكري والسياسي، وتربص الاستعمار الأوروبي بالدولة العثمانية، ألم تكن فكرة "الجامعة الإسلامية" صائبة من حيث مبدأ جمع الكلمة وتوحد الرؤى في مواجهة المد الاستعماري التوسعي؟. إنها فكرة جريئة ولذلك اجتهد الاستعمار وأذياله من دعاة محاربة البدع لتشويه شخصية "جمال الدين الأفغاني" المنظّر السياسي لمبدأ الجامعة الإسلامية، ونصير الحراك السياسي والفكري في مواجهة الاستعمار الأوروبي. كان الأفغاني عظيماً في فكره وآرائه الجريئة والتي لقيت نجاحاً في مصر بوجه خاص

---

1) المرجع نفسه : ص٢٤٠.

أكثر مما لقيته في بقية أنحاء العالم العربي، وذلك لأن الحركة الوطنية بمصر كانت تناضل ضد الاستعمار البريطاني، عكس بلاد الشام والعراق حيث كانت الحركة الوطنية فيها في مواجهة الدولة العثمانية. وكانت الدعوة لقيام جامعة إسلامية والتي تمثلت بركنين أساسيين، الأول : الالتفاف حول الخلافة الإسلامية، ولذلك نشط عبد الحميد الثاني على إحياء الخلافة الإسلامية من خلال استصراخ المسلمين في العالم الإسلامي للوحدة، ودعا أصحاب الطرق الصوفية، والفقهاء والمشايخ من العرب إلى الأستانة، ومنحهم مرتبات مغرية ليكونوا عوناً له في دعوته للوحدة الإسلامية، وأنشأ المجلات التي أخذت على عاتقها السير بالدعوة، وأنشأ مدرسة للوعظ والإرشاد.. أما الحج وهو الركن الثاني من الجامعة الإسلامية فقد عني السلطان عبد الحميد بالاهتمام بالحجاز فأنشأ الخط الحديدي إلى مكة والمدينة المنورة، الذي تم بناؤه عام ١٩٠٨م لتسهيل الحج للمسلمين.

عوامل ضعف الدولة العثمانية.. مقدمات ونتائج:

تميزت الفترة التاريخية من عام ١٨٥٤- ١٨٧٥م بتدفق الرأسمال الأجنبي على الدولة العثمانية وخاصة بعد سقوط نظام محمد علي باشا في مصر، والذي كان يحتكر الصادرات والواردات التجارية المصرية، وتم رفع الحظر عن تملك الأجانب في عامي ١٨٥٤و١٨٦٧م[1]. ونتيجة لذلك فقد فرض الأوروبيون أنفسهم على الدولة العثمانية بالقيام بمشاريع سكك الحديد والمرافئ، والمناجم والبنوك والذي بلغ معدله السنوي في السنوات المشار إليها

1) د. عبد الرؤوف سنو : تطور الاتجاهات الإسلامية في الدولة العثمانية [مجلة المنهاج – العدد الرابع – شتاء ١٤١٧هـ /١٩٩٦م]، ص١٢٠.

"١,٩" مليون ليره استرلينية، ومن أصل "٢٤٤ مصفاة"[1] إذاً لقد كانت معاهدات الامتيازات للدول الأوروبية بداية السقوط النهائي للدولة العثمانية.

في بلاد الشام لعب التجار المسيحيون دوراً وسيطاً مع أوروبا " واستناداً إلى تقارير قنصلية بريطانيا تراجع عدد التجار المسلمين المتعاملين مع أوروبا من ستة مقابل ثمانية وعشرين تاجراً مسيحياً وأجنبياً، في عام ١٨٢٦م إلى ثلاثة تجار في عام ١٨٤٨م مقابل تسعة وعشرين بيتاً تجارياً مسيحياً" [2].

وفرضت الدول الأجنبية حمايتها للمسيحيين، كما رافق ذلك تدخل سياسي أوربي في شئون الدولة العثمانية، وبلغ ذروته بالروابط الحميمة بين الغرب والذميين، وفرضت الدول الأجنبية على الدولة العثمانية منح امتيازات خاصة للمسيحيين بطوائفهم داخل بيئة السلطنة العثمانية، ومن ذلك الإعفاء من الخدمة العسكرية والاستقلال الذاتي في الشؤون الدينية والاجتماعية، والتعليمية، والضريبية، وأصبح المسيحيون داخل الدولة العثمانية كأنهم رعايا الدول الأجنبية.. ونلاحظ أن التدخل الأوروبي العسكري – السياسي في القرن ١٩م كان لصالح تلك الطوائف المسيحية.. لذلك لجأ المثقفون العثمانيون إلى الدعوة التتريكية لكل الطوائف والقوميات تحت شعار المساواة بين المسلمين وغير المسلمين أمام القانون في الحقوق والواجبات بصرف النظر عن الدين أو العرق أو اللغة، وألغيت الجزية على الأقليات الذمية، وسمحت لهم بممارسة الحقوق الوظيفية سواء في الإدارات أو الجيش من أجل لفت نظر الدول الأوروبية أن الدولة العثمانية بدأت تأخذ بعين الاعتبار التحول نحو عصرنة السلطنة.. وبدأ النظام العثماني يتعامل مع الملل على أساس

---

1) المرجع نفسه : ص١٢٠.

2) ألبرت حوراني : التاريخ الاقتصادي للهلال إلخصيب ١٨٠٠- ١٩١٤م، ترجمة : رؤوف عباس حامد، بيروت، ١٩٩٠م، ص٢٦٤- ص٢٦، نقلاً عن د. عبدالرؤوف سنتو : تطور الاتجاهات الإسلامية في الدولة العثمانية، مرجع سابق، ص١٢٢.

المواطنة العثمانية.. وفي عام ١٨٦٩م أصدرت الدولة العثمانية قانون الجنسية العثمانية[1].

وعندما حاولت الدولة العثمانية بعد ذلك إلغاء الامتيازات رفضت الدول الأوروبية مجتمعة.. وحثت الدولة العثمانية بالاستمرار في طريق الإصلاحات.. وتوجت الدولة العثمانية توجهاتها الإصلاحية بفرمان [خط شريف كلخانة ١٨٣٩] بإلغاء الجزية عن المسيحيين ومساواتهم بالمسلمين.. رفض الأرمن ذلك وأصروا على عدم التنازل عن امتيازاتهم القديمة[2]. وما كان من السلطان العثماني عبد الحميد، أن أعاد النظر بفرمان (خط هيمايون ١٨٥٦) تحت ضغط الدول الأوروبية على إبقاء الامتيازات للمسيحيين مع المساواة في كل شيء مع المسلمين[3].

ومن البديهي أن ينظر المسلمون العثمانيون على أن المساواة مع المسيحيين جاءت نتيجة تدخل خارجي أجنبي، حيث بدؤوا ينظرون إلى الإصلاحات على أنها "وافدة" من الخارج ، ومفروضة من قبل الدول الأوروبية المسيحية لصالح مسيحيي الداخل وأن أوروبا هي العقبة الكبرى أمام تفوق إسلامي كامل على المسيحيين المحليين[4].

ولم يكن مسيحيو الأمس مضطهدين فقد كان شأنهم شأن الأقليات الذمية لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم، تقوم الدولة بحمايتهم ورعايتهم واحترام حقوقهم بموجب الدستور التشريعي الإسلامي.. إلا أن الظروف التي

---

1) د. عبدالرؤوف سنو : تطور الاتجاهات الإسلامية في الدولة العثمانية، مرجع سابق، ص١٢٦.

2) نفس المرجع : ص١٢٦.

3 (All the privileges and spiritual immunities granted to all christians communities or other non. Musulman.. shall be confirmed.

هذا ما جاء في خط هيمايون، نقلاً عن الدكتور عبدالرؤوف سنو : المرجع السابق،ص١٢٦.

4) نفس المرجع : ص١٢٨.

استجدت على الساحة السياسية للدولة العثمانية أوجدت بذور الانشقاق وثقافة الكراهية بين النظام الحاكم والأقليات، ورعت أوروبا ذلك التوجه الجديد القائم على الدعوة للإنفصال عن النظام العثماني والدعوة للحرية والاستقلال.

وعندما ارتقى السلطان عبد الحميد الثاني العرش كان الوضع السياسي سيئاً للغاية، وبدأ عهده متظاهراً بأنه يحيا حياة مطابقة للصفات التي اشتهرت عنه، برغبته للتقدم والتجديد، وعين مدحت باشا رئيساً للوزراء (صدراً أعظم) وكان قد عرف عن مدحت باشا النزعة الدستورية الإصلاحية، ووسط احتفالات رائعة المظهر في اليوم نفسه (٢٣ ديسمبر١٨٧٦م) أعلن عن الدستور.. وكان الدستور المعلن يحمل أفكار مدحت باشا وآراءه الحرة.. وقام السلطان بوضع لمسات كتعديلات على الدستور.. وكان لهذا الإعلان الدستوري دور كبير في تعطيل المؤتمر الأوروبي[1].

وفي شهر فبراير ١٨٧٧م أزاح السلطان عبد الحميد مدحت باشا من منصبه، ونفاه إلى أوروبا، وبعد أن افتتح السلطان البرلمان الجديد في مطلع شهر مارس من نفس العام ألقى خطاب العرش، وتذرع بإعلان روسيا الحرب على السلطنة، فأصدر قانوناً بتعطيل الدستور.. وبقي "معطلاً" أحداً وثلاثين عاماً[2].

---

1) جورج أنطونيوس : يقظة العرب [تاريخ حركة العرب القومية]، ترجمة : دكتور ناصر الدين الأسد وآخر، بيروت، دار العلم للملايين، ط٥، ١٩٧٨،ص١٣٠.

2) نفس المرجع : ص١٣١ : ويشير الدكترو محمود حداد في موضوعة : إعادة نظر في بروز القومية العربية : مجلة أبعاد "العدد الثالث / أيار / مايو ١٩٩٥م، صادره عن المركز اللبناني للدراسات، ص١٨٤ : إلى أن السلطان عبد الحميد الثاني أول من أمر بجعل اللغة التركية لغة المراسلات بين مختلف فروع الإدارة الإقليمية، وهو الذي جعل اللغة التركية لغة التعليم في المدارس الحكومية المحلية.. وأخذ يعين في بعض أقسام الإدارة المحلية موظفين أتراكاً عوضاً عن تعيين موظفين عرباً سوريين. وحصر الأتراك بالمراكز العليا في الإدارة

وفي ظل تلك الأوضاع السياسية السيئة نلاحظ صعود القوى الأوروبية صناعياً مقابل ضعف الدولة العثمانية وفساد إدارتها والثورات القومية في منطقة البلقان كاليونان، وصربيا، وبلغاريا.. ونجاح هذه الشعوب بحصولها على الاستقلال وتسرب أفكار أوروبية إلى الشرق ومنها شعارات الثورة الفرنسية التي دعت إلى الحرية والمساواة والوطنية، وذلك ابتداءً من عام ١٧٩٨م عهد الحملة الفرنسية على مصر، مروراً إلى حركة الهجرة إلى أوروبا وصولاً إلى انتشار معاهد التعليم الأوروبي وخصوصاً في بلاد الشام وبوجه خاص في لبنان.

المحلية وفي السلطات العدلية المحلية... وفي عهده أيضاً كان الكثير من معلمي المدارس الثانوية الحكومية بمن فيهم معلمو اللغة العربية نفسها أتراكاً أو غير عرب جيء بهم من ولايات غير عربية.. واتبع عبد الحميد سياسة التتريك والمركزية، إلا أنه قام باحتواء تعيين بعض العرب السوريين في الإدارة الإقليمية.وتشير ورقة : دكتور فارس ساسين : في هوية اللبنانيين الوطنية والقومية (مجلة أبعاد – مرجع سابق) ص٢٥٩- ص٢٨٣ : إلى أن السلطنة العثمانية عندما حاولت مواجهة الأوضاع المستجدة تحديث قوانينها وإداراتها وفرض سلطة المركز على الولايات وتحسين الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية عبر ما يعرف "بالتنظيمات إلخيرية" التي افتتحها، وأصدر (خط شريف كلخانه ١٨٣٩/١١/٣م) وعززها بإصدار (خط همايون ١٨٥٦/٢/١٨) الذي رسم المساواة الكاملة بين رعايا السلطنة كافة المسلمين منهم وغير المسلمين، وذلك لجهة الوظائف والمعاملة والخدمة العسكرية، وتطبيق العدالة، ودفع الضرائب ودخول المدارس.. وكان من نتائج هذه التنظيمات هو تشديد القبضة المركزية على الولايات العربية وتزايد وعي الطبقات التركية التي تغذي الإدارة والجيش لهويتها الطورانية، الأمر الذي انعكس تخوفاً بين العرب المسلمين في بلاد الشام.. إلا أن السلطان عبد الحميد الذي نجح في انقلابه على الدستوريين، واتخذ من الرابط الإسلامي لمواجهة الغرب وسعى لاحتواء المسلمين العرب بتعيين البعض منهم في مراكز إدارية مهمة وعسكرية، وتنفيذ بعض المشاريع الإنمائية مثل (سكة الحديد – تركيا – الحجاز) وإنشاء مدارس حكومية في سوريا..)

ومن جهة أخرى فإن المشروع السياسي الإسلامي في العهد العثماني كان مبنياً على مقارنة بين ممارسة الحياة والحكم تحت نفوذ (المماليك والعثمانيين) في مصر، وما تلا ذلك في عهد النظم الحديثة التي سنها الفرنسيون، هذه المقارنة كانت لدى المؤرخ عبدالرحمن الجبرتي، والذي أقر بأفضلية الفرنسيين، ويعد ذلك نوعاً من الفصام "فقد سجل الجبرتي ثناءه على الفرنسيين لأنهم لم يكونوا يتجاوزا الرسوم التي فرضوها على الأقضية أو رسوم التسجيل ولأنهم لم يبادروا بقتل سليمان الحلبي عندما اغتال الجنرال كليبر، بل حاكموه وسألوه وناقشوا الشهود، وأثنى عليهم لأشياء أخرى كثيرة"[1].

ومع ذلك فقد تجمعت قوى الشعب والمماليك والأتراك في مواجهة الغازي الأجنبي، ولأول مرة نجح العلماء في تثبيت سلطة أحد القادة العثمانيين والياً على مصر، وهو محمد علي باشا (١٨٠٥- ١٨٤٩م) إلا أنه أوجد لنفسه مشروعاً سلطوياً يقوم على تثبيت سلطته ويرثه أبناؤه من بعده، وكان

---

1) د. وليم سليمان قلادة : التغيير المؤسسي في الوطن العربي على النسق الغربي "التراث وتحديات العصر في الوطن العربي" الأصالة والمعاصرة، بحوث ومناقشات الندوة الفكرية : في السيد ياسين وآخرين، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ط٢، ١٩٨٧م،ص٤١٧.. ويضيف الباحث وليم أن الذي حدث في التاريخ المصري أن شوكة الحكام العثمانيين والمماليك أطاحت بها شوكة أجنبية هي الحملة الفرنسية. وكان لهذا العنصر الأجنبي لمسار حركة التغيير للمفاهيم السابقة، فاللمسات الأجنبية جاءت من خلال تعليمات نابليون بونابرت الذي يقول فيها : "أن الغرض من عقد الديوان العام هو تعويد الأعيان المصريين نظم المجالس الشورية والحكم فقولوا لهم أني دعوتهم لاستشاراتهم وتلقي آرائهم فيما يعود على الشعب بالسعادة والرفاهية، وما يفكرون في عجلة إذا كان لهم حق الفتح الذي حزناه في ميدان القتال.،ص٤١٦.. انظر : عبد الرحمن الرافعي، عصر إسماعيل،ط٢، ٢ج (القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٣٢)، ج١، ص٨٥، ومابعدها، وقلادة "محمد علي حاكماً".

لطموحه المشروع أنْ رغب بالإنفراد والإنفصال عن الدولة العثمانية.. ففي عام ١٨٣٨م ألغيت سياسة الاحتكار من الدولة العثمانية بما فيها مصر.. وفي عام ١٨٤٠م وقعت معاهدة لندن التي أجبرت مصر على الانسحاب من سوريا وضمنت لمحمد علي حكم مصر وراثياً... وصدور فرمان في فبراير عام ١٨٤١م يحدد عدد أفراد جيش محمد علي بأن لا يزيد عن ثمانية عشر ألف جندي فقط، ويمنع محمد علي وورثته من بناء سفن حربية.. وبسقوط نظام محمد علي سقط أول مشروع سياسي إسلامي.. وجاء من بعده عباس ثم سعيد ليصل الأمر إلى إسماعيل باشا الذي تبنى مشروعاً إصلاحياً يقوم على المبالغة في الترف وأغرق مصر في مديونية لم تنته مصر من تسديدها إلا في عام ١٩٥٤م.

ومن مقدمات الحركة القومية التركية أن النظام الرأسمالي وما يتطلب من تكامل اقتصادي قومي موحد يقوم مقام المراكز الاقتصادية المبعثرة التي تمثل النظام الإقطاعي إلى جانب تطور التقدم العلمي، وتقدم طرق المواصلات في كل الميادين. وكان للقومية إمكانيات قليلة وغير مترابطة بسبب الإقطاع، فجاء النظام الرأسمالي وسمح لهذه الإمكانيات للظهور والتطور.. ويرتبط ظهور العلاقات الرأسمالية في المجتمع بظهور الطبقة المتوسطة والذي اصطلح عليها الطبقة البرجوازية وبها قطاع المثقفين. وهو الذي يسير الحركة القومية ويقود كافة الطبقات وراءه، والحركات الوطنية في الشرق الأوسط علمانية، عقلية تستند على وعي طبقة متوسطة وتستهدف تحقيق مبادئ أربع هي : الحرية الفردية، والنظام الدستوري، وهدم الإقطاع والتحرر الوطني من السيطرة الاستعمارية الأوروبية[1].

---

(1) Hans kohn: Nxationolism and Gmperialismin The hather east (١٩١٤ -١٥١٤) نقلاً عن : د. محمد أنيس : الدولة العثمانية والشرق العربي، القاهرة، مكتبة سعيد رأفت، ١٩٧٧، ص٢٤٤.

كانت الدولة العثمانية تواجه أزمات عنيفة منها الحركات السياسية في بلغاريا والعرب تهدد بالخروج عن النفوذ العثماني كولايتين.. وكذلك خطر التدخل الأوروبي في شئون الدولة العثمانية أما الأزمة الثانية للدولة العثمانية، فتمثلت في عجز ميزانية الدولة وإفلاسها إفلاساً تاماً بسبب إسراف السلطان عبد العزيز.. وانتهى ذلك العجز في عام ١٨٧٦م إلى إعلان إفلاس الدولة وتكوين هيئة دولية والتي عرفت (بإدارة الدين العثماني العام)، وتحرك مدحت باشا بقوات عسكرية ضد السلطان عبدالعزيز، وتولية السلطان مراد الخامس، إلا أنه أصيب باختلال عقلي مما حمل العسكريين على تعيين عبد الحميد الثاني سلطاناً للبلاد بدلاً عن مراد الخامس عام ١٨٧٦م وتم تعيينه على شرط قبول الحكم بالدستور، وبعد أن تم الإعلان عن الدستور وتعيين مدحت باشا رئيساً للوزراء أُقيل مدحت باشا من منصبه في فبراير عام ١٨٧٧م وأوقف العمل بالدستور في مارس من نفس العام.. وانقلبت حركة تركيا الفتاة إلى حركة سرية عام ١٨٨٩م، وأسس طلبة المدرسة الطبية العسكرية "جمعية سرية" سميت الاتحاد التركي تدعو إلى عزل السلطان عبد الحميد الثاني، ونشأت هذه الجمعية في مدرسة عسكرية، وكان التعليم العسكري أفضل من التعليم المدني، فبينما استمر التعليم المدني على العلوم الدينية كانت المدارس العسكرية يعتمد منهجها التعليمي على العلوم الأوروبية ولاسيما المدرسة الفرنسية أولاً ثم المدرسة الألمانية فيما بعد، وكانت المدارس العسكرية أكثر اتصالاً وارتباطاً بالثقافة الأوروبية، وهو أمر يفسر لنا ظهور الاتجاهات العلمانية في المدارس العسكرية، فالجيش كان للحرب والحكم معاً، كما هو الحال في الوطن العربي يومنا هذا.

ولقد نظمت جمعية الاتحاد التركي على غرار الجمعية الإيطالية (كاربوناري) التي أسست في القرن ١٩م ولعبت دوراً في الوحدة الإيطالية.. ولذلك فقد تأثرت جمعية الاتحاد التركي بالجمعية الإيطالية وانتشرت

الجمعية أولاً في مدرسة الطب العسكرية، ثم انتشرت إلى بقية المدارس العسكرية العالية مثل "الأكاديمية العسكرية" و"المدرسة البيطرية" و"المدرسة الملكية" و"المدرسة المدنية" لتخريج موظفي الدولة و"المدرسة البحرية" و"المدرسة المدفعية".. وحوالي عام ١٨٩٢م بدأت الجمعية تنشط بين موظفي الدولة". وفي الوقت الذي كانت الحركة تنتشر في القسطنطينية كان نشاط الأتراك الأحرار في المهجر قوياً ونشطاً ووجد تواصل بين المهاجرين وحركة الاتحاد التركي. وانخرط المهاجرون بالحركة الأم في تركيا، ومن أبرز هؤلاء المهاجرين ثلاثة : أولهم خليل غانم، وهو مسيحي عربي من بيروت كان نائباً في مجلس المبعوثان عام ١٨٧٨م عن إحدى مناطق سوريا، فلما عطل السلطان عبدالحميد البرلمان توجه هارباً نحو أوروبا، وأنشأ صحيفة "تركيا الفتاة" وكان قد سبق أن أسس جريدة في جنيف تحت اسم "الهلال" هو وأحمد رضا الذي اتجه إلى باريس عام ١٨٨٩م واشترك أحمد رضا، في تنظيم "الأتراك الأحرار" في باريس وتولى بالاشتراك مع خليل غانم، تحرير جريدة "مشاورات" اتخذت لسان حال هذه الحركة منذ عام ١٨٩٥م، أما الشخصية الثالثة فهو "مراد بك" وكان مدرساً للتاريخ في الكلية المدنية، وقد فر من وجه السلطان عبد الحميد ولجأ إلى مصر.. وفي مصر أسس مراد بك جريدة "الميزان".. ومن خلال هذه الكتابات بما في ذلك كتابات "مشاورات" تحددت أهداف تنظيم سياسي جديد يسمى "جمعية الاتحاد والترقي" عملت هذه الجمعية على التوسع في مسألة التتريك والمركزية، وتخلت عن سياسة عبد الحميد الاحتوائية، وعملت بالتضييق على الذين عدتهم أنهم على صلة وثيقة بعهد عبدالحميد الثاني، وتصفية الإمبراطورية العثمانية، وتجديدها على النمط الأوروبي، وإضفاء النزعات القومية العثمانية على اعتبار أن الجميع عثمانيون عرب وأفارقه وأسيويون أتراك، وألبان، وأرمن، ولا فرق بين مسلم ومسيحي ويهودي فالحركة أممية.

وبحكم مركزها في باريس فقد دبرت هذه الجمعية انقلاباً عام ١٨٩٦م بزعامة الحاج أحمد أفندي الذي كان رئيساً للجنة المركزية للجمعية في أسطنبول، وكانت الخطة أن يتحرك الجيش في القسطنطينية باحتلال القصر أثناء اجتماع مجلس الوزراء ويتم خلع السلطان عبد الحميد الثاني والحصول على فتوى من شيخ الإسلام بشرعية هذا الخلع إلا أن عيون السلطان عرفت المؤامرة قبل تحركها.. فتم القبض على زعماء الحركة.. وتم اعتقال أعضاء الحركة وتم تصفية الحركة في العاصمة.

كان عزت باشا أحد الشخصيات المغامرة الذين شقوا طريقهم إلى السلطان عبد الحميد الثاني، حظي عنده، ونال منصب "السكرتير الثاني" للسلطان وهو عربي من بلاد الشام، وأصبح أقوى موظف في الدولة.. وقد تمكن من إدراك غرور السلطان وجبنه "على حد قول جورج أنطونيوس" [1]. وكان له وضع خاص لدى السلطان، فهو الذي أوحى للسلطان بمد سكة حديدية إلى الحجاز.. وكانت خطته في مد سكة حديدية من دمشق إلى المدينة، ومنها إلى مكة بحجة تسهيل سفر الحجاج إلا أن الحقيقة كانت ذات أهداف سياسية وحربية قبل كل شيء.

وظهر ذلك من خلال تكوين المجلس الأعلى الذي رأسه عزت باشا للإشراف على المشروع، حيث وجه نداء إلى العالم الإسلامي أوضح فيه الدافع الديني الذي ألهم الخليفة مد السكة الحديدية، وأهاب بالمسلمين أن يتبرعوا بالمال لجمع نفقات المشروع.. وفرضت في جميع أنحاء الدولة ضريبة خاصة في صورة طابع بريدي، ووجهت الدعوة إلى الموظفين في الحجاز ليتبرعوا بنسبة معينة من مرتباتهم، وعهد بالعمل إلى مهندسين من الألمان

---

1) يقظة العرب : مرجع سابق، ص١٤٢.

فبدؤوا التنفيذ في ربيع سنة ١٩٠١م[1]. وانتهى بناء المشروع في خريف عام ١٩٠٨م وهي مسافة تبلغ ٩٠٠ ميل وبلغت تكلفة المشروع نحو ثلاثة ملايين جنيه.

وكان لهذا المشروع أثره البالغ في كل البلدان الإسلامية.. وجعلت وسائل السفر في الولايات العربية الواقعة في الغرب أسرع مما كانت[2].

في خريف عام ١٨٩٨م وصل إلى اسطنبول إمبراطور ألمانيا "غليوم الثاني" في زيارة رسمية للسلطان عبد الحميد ، وتوجه الإمبراطور من سطنبول إلى القدس، ومنها إلى دمشق وخلال رحلته هذه حاول أن يظهر شعوره الطيب نحو السلطان ومودته للإسلام وللخليفة.. وألقى خطاباً عاطفياً مليئاً بالمودة في دمشق قال فيه : "فليطمئن صاحب الجلالة السلطان، وليطمئن معه الثلاثمائة مليون من المسلمين الذين يجلونه لأنه الخليفة إلى أنهم سيجدون في إمبراطور

---

1) نفس المرجع السابق: ص١٤٢.

2) يشير "جوتش وتمبر لي" في الوثائق البريطانية عن أسباب الحرب، المجلد الخامس، ص٤٣ : نقلاً عن جورج أنطونيوس، مرجع سابق، ص١٤٤. إلى ما أوضحه السفير البريطاني لدى الباب العالي في تقريره السنوي عام ١٩٠٧م ما نصه " ومهما يكن فليس هناك غير عاملين اثنين يظهران بوضوح من بين عوامل الحالة السياسية العامة خلال السنوات العشر الأخيرة. أما الأول فهي تلك السياسة الماهرة التي حدث بالسلطان إلى أن يظهر أمام ثلاثمائة مليون من المسلمين بمظهر الخليفة والزعيم الروحي للإسلام، وبث في نفوس رعاياه الحماسة والاستجابة لشعوره الديني حين مد سكة حديد الحجاز التي ستيسر لكل مسلم في المستقبل القريب، سبيل الحج إلى الأماكن المقدسة في مكة والمدينة، فتتيح لهم التمتع في الآخرة بمسرات الجنة ومباهجها. وكان من نتيجة ذلك أن أصبح رعاياه يدينون له بالطاعة العمياء إلى حد لم يسبق له مثيل، وأصبحوا يقبلون عن رضا باستبداده المطلق الذي لم يشهد التاريخ له شبيهاً من قبل وصارت إرادة "الباديشاه" هي الشريعة المطبقة على الأرض فإذا دعا سوء الحظ مسلماً إلى أن يحس بإرهاب الحكومة العنيف وطغيانها فإنه يعزو هذه المظالم إلى الموظفين ولا يعزو إلى الخليفة عملاً فيه سوء"

ألمانيا الصديق الدائم لهم". ثم اتجه إلى قبر صلاح الدين الأيوبي، ووضع عليه إكليل زهر، وأمر بصنع مصباح من الفضة للضريح هدية شخصية منه بوصفه أحد المعجبين بالبطل صلاح الدين[1].

كان عبد الحميد بالفعل يدرك قيمة مثل هذا الحليف القوى في المحافل الأوروبية، وكان واثقاً بقدرته على دفع جميع المخاطر التي قد تنشأ عن رغبة ألمانيا في السيطرة، لذلك رحب بما أعلنه إمبراطور ألمانيا من صداقته للإسلام ومباهاته بذلك.

من جهة أخرى كانت الحركات السرية تحاول تثبيت أقدامها، كان لجهود المدارس والكليات الأجنبية إلى فرض نوع من الانفصام في التعليم بين الذات والآخر. لذلك كانت الجهود قد بذلت لتعليم الدارسين اللغة الأجنبية، وكان الهدف سياسياً مقصوداً عندما تلقن اللغة الأجنبية عن عمد وتعطى المكانة الأولى.. وكان انتشار التعليم للعلوم الحديثة يكونَّ عبئاً ثقيلاً على اللغة العربية بحكم إدخال مصطلحات فنية جديدة على العربية، فأهملت اللغة العربية، وحدد الأمريكان منذ عام ١٨٨٠م جعل اللغة الإنجليزية لغة التدريس في الكلية السورية البروتستنتية، ونشأ جيل من المتعلمين يألفون اللغة الفرنسية أو الإنجليزية أو الروسية، أكثر مما يألفون لغتهم العربية[2].

وكما هو معلوم أن الفكر العلماني نشأ في أوروبا للتصدي لسلطة الكنيسة الكاثوليكية وتسلطها، وأن الصراع بين السلطة الروحية، والزمنية، هو الذي أفضى إلى العلمانية التي تحولت إلى فلسفة حياة في أوروبا، وامتدت إلى كل جوانب نشاط الإنسان الأوروبي، وقامت على أساس الحضارة المعاصرة في الثورات العلمية والتكنولوجية والاجتماعية، وما نشأ

---

1) جورج أنطونيوس : مرجع سابق، ص١٤٧.

2) نفس المرجع : ص١٦٧.

عنها من نظم عالمية وتنظيمات دولية في المجالات السياسية والمالية والاقتصادية والفنية والاجتماعية..إلخ.

أما الفكر الإسلامي فقد حدد منهجه في الاجتهاد التشريعي قائماً على القياس المقنن والإجماع الملزم في سياق المصالح المرسلة.. وقد استطاع النظام الإسلامي في بداية عصره على الرغم من كل النزاعات والاتجاهات والصراع على السلطة أن يحقق كثيراً من الفاعلية، وخلف تراثاً فكرياً وتقاليد راسخة في هذا المجال.

ومن نافلة القول الحديث عن نشأة حركة العرب القومية، كونها نشأت في سوريا كحركة تولتها الجمعيات السياسية المقاومة للاستبداد التركي، وبدأت تطالب بالإصلاح السياسي لدولة الخلافة العثمانية إصلاحاً يمكن العرب من الهيمنة الداخلية على مقدراتهم السياسية في إطار دولة الخلافة، وكان الهدف من الإصلاح هو رفع الهيمنة السياسية التركية عن العرب.[1]

وزاد من قوة هذه الحركة العربية القومية سيطرة وتولي جمعية الاتحاد والترقي السلطة عام ١٩٠٨م ومع حركة التتريك والنزعة الطورانية التي رعتها السلطة العثمانية فجاء المطلب العربي بالانفصال يحمل نوعاً من رد الفعل لظهور القومية التركية ظهوراً سافراً في إطار الدولة العثمانية، إذن فقد كانت تلك الحركات القومية العربية في فتوحاتها حركة إصلاح دستوري تهدف إلى مساواة العرب بالأتراك في ظل الحكومة التركية. ثم انتقلت إلى مرحلة جديدة تحت مطلب الاستقلال الذاتي ثم المطالبة بالانفصال والاستقلال

---

1) طارق البشري : الخلاف بين النخبة والجماهير إزاء العلاقة بين القومية العربية والإسلام، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية "ندوة حول القومية العربية والإسلام" د. عبدالعزيز الدوري وآخرون، ط١،١٩٨١،٢٨٥.

السياسي عن تركيا، وتواكب هذا التصاعد مع تطور حركة التتريك والنزعة الطورانية[1].

قد يكون رواد الفكر القومي الحديث في سوريا والعراق لجؤوا إلى فصل الإسلام عن المفهوم القومي العربي كرد فعل لحركة التتريك ونزعة القومية التركية، ومقاومة الاستبداد العثماني وبناء مجتمع عربي يقوم على المساواة التامة بين جميع القاطنين فيه، وإن اختلفت دياناتهم.. أما العلمانية فهي نبت غربي صرف أفرزته التجربة الأوروبية في ملابساتها التاريخية.. وقد صيغ الفكر القومي على أيدي المستغربين سواء المسلمين أو المسيحيين، بعد أن تحول التوجه العربي تجاه أوروبا، وترسخ في الأذهان مفهوم انحطاط الشرق، ونهوض الغرب.. أن الماضي متروك والمستقبل منقول من الشاطئ الآخر[2].

وكان ابن باديس[3] أحد أبرز علماء الجزائر قد ربط بين الحركة الوطنية والتعاليم الإسلامية، وإحياء الثقافة العربية معاً.. وإشاعة روح الانتماء للعروبة، وتأكيد إسلامية الشعب الجزائري، واعتبار اللغة العربية هي اللغة القومية مع التمسك بالشريعة الإسلامية أيضاً.

وفي تونس قامت فكرة الحركة القومية على أساس ربطها بالحركة الوطنية في كل من مصر والمشرق العربي ودعت رابطة الحركة التونسية لقيام جامعة إسلامية بالقدس على غرار الأزهر بمصر والزيتونة بتونس لتكون سداً منيعاً ضد الحركة الصهيونية، وكانت رابطة الحركة التونسية ترى أن الأشخاص الذين تجنسوا بفرنسا يمنع دفنهم بمقابر المسلمين، بما يعني "التكفير" الديني للخارج عن الخط الوطني.. وهذا الاتجاه

---

1) نفس المرجع : ص٢٨٦.

2) نفس المرجع : ص٢٩١.

3) نفس المرجع : ص٢٩٧.

الراديكالي في نظرته الوطنية كان في ذلك الحين ضرورة سياسية تجاه المتطلعين لأنصاف الحلول في المواجهة السياسية ضد الاستعمار الفرنسي.

ويرى "جوزيف مغيزل"[1] أن الاتجاه العربي نظروا إلى وضعهم نظرة شبه قومية، آخذين بعين الاعتبار اللغة والعرق والتاريخ والأرض، والقضايا المصيرية المشتركة، وان أكثر المنادين به في سوريا والعراق وفلسطين ولبنان، ثم امتد إلى مصر وسائر الأقطار العربية، وقد أُنشِئت جمعية لبنانية في بيروت، من أبرز أعضائها إبراهيم اليازجي وفارس نمر ويعقوب صروف، وكانت أهدافها استقلال سوريا ولبنان، وتكوين دولة واحدة منهما، تكون اللغة العربية هي اللغة الرسمية في البلاد وإقرار الحريات الفردية في الفكر والعمل والمعتقد والسياسة.ونشر المعرفة والعلم في جميع أنحاء البلاد، وعدم استخدام المجندين من أبناء البلاد في بلد آخر، ثم تكونت في باريس جمعية "العربية الفتاة" عام ١٩٠٩م تدعو إلى إقامة دولة عربية في ظل الأتراك، ثم انتقلت إلى بيروت ودمشق، ومن أبرز أعضائها الأمير فيصل بن الشريف حسين.. ثم انشئت جمعيات أخرى كالجمعية القحطانية وجمعية الجامعة العربية،و جمعية العهد، وطالبت الزعامات العربية عقد مؤتمر في باريس عام ١٩١٣م تحت شعار من أجل تضامن عربي وتحقيق نظام لا مركزي وتأمين حقوق العرب في كل المجالات[2].

حاول "جوزيف" في دراسته محاكمة التاريخ والنظر إلى أن التاريخ مجرد من الفكر، وهو يعلم أنه لولا التاريخ الإسلامي والقيم الإسلامية لما كان للعرب قيمة.. ولذلك ينبغي الإلتزام بالمنهج التاريخي مع مراعاة ظروف الزمان والمكان في تقييم الواقع والأحداث ومراعاة الدقة في حسابات حجم الحدث..

---

1) الإسلام والمسيحية العربية والقومية العربية والعلمانية: "مركز دراسات الوحدة العربية"، بيروت، بحوث ومناقشات الندوة بعنوان "القومية العربية والإسلام" مرجع سابق، ص٣٦٨.

2) نفس المرجع : ص٣٨٦.

فجوزيف مغيزل يشير إلى تطبيق الحقوق وفقاً للإعلان العالمي لحقوق الإنسان وهي :" **المادة الأولى**: يولد جميع الناس أحراراً متساوين في الكرامة والحقوق، وقد وهبوا عقلاً وضميراً، وعليهم أن يعامل بعضهم بعضاً بروح الإخاء. **المادة الثانية** : لكل إنسان حق التمتع بكافة الحقوق والحريات الواردة في هذا الإعلان دون أي تمييز بسبب العنصر أو اللون أو الجنس أو اللغة أو الدين أو الرأي السياسي أو أي شيء آخر.

ومن حق أي قارئ أن يتساءل أين طبقت هذه الحقوق أو الحريات، ففي أمريكا التمييز هناك قائم بين البيض والسود والملونين، أم في إنجلترا و التمييز بين الإنجليز أنفسهم.. "البيض وأبناء الكومونولث " وهي الدول التي خضعت للاستعمار البريطاني أم إيرلندا ، بين الكاثوليك والبروتستانت؟ وكذلك نظرة الغرب العلماني لأبناء العالم الثالث وعلاقته بهم؟ بل وأين هذه العلمانية من امتيازات الأحزاب في الدول الشمولية على الرعية؟

وهكذا نلاحظ أن الكثير من المفكرين العرب المسيحيين بوجه خاص يغضون الطرف عن الفكر العربي الإسلامي، والتاريخ ليس أحداثاً وفتوحات بل مجموعة قيم انصهرت وكونت أمة عربية واحدة تحتكم لتنظير فكري إسلامي متماسك.. ولو لم يكن الإسلام لما كان للعرب قوة ووحدة وتاريخ.

الدولة العثمانية.. والحرب العالمية الأولى:

كان الوضع السياسي في العالم العربي يختلف من قطر إلى آخر بحكم اختلاف المناخ السياسي بين الولايات العربية، بالحجاز كان يحكمها الشريف حسين وكانت علاقته بدأت تسوء مع الأتراك، وكانت التخرصات السياسية تفيد أن الأتراك يرغبون إقالته من منصبه، لذلك بدأ يعمل جاهداً من خلال ابنه عبدالله وكان نائباً برلمانياً في الدولة العثمانية، ويعد الابن الثاني للشريف حسين، وكان الأمير عبدالله معتزاً بنفسه وكان يجيد اللغة

التركية بحكم إقامته في تركيا.. فحينما كان مبعوثاً عن مكة، بذل كل جهده ليستفيد من منصبه ونفوذه لدى السلطان في دعم نفوذ ومركز والده في الحجاز.. وبينما الأمير عبدالله في القاهرة في فبراير ١٩١٤م في طريقة من مكة إلى القسطنطينية اتصل بكتشنر متظاهراً بأنه يرد زيارة مجاملة وحضر اجتماعهما المستر "الآن بير" وروناldستورز والذي كان يجيد اللغة العربية، وكان كتشنر آنئذ السكرتير الشرقي في دار الاعتماد البريطاني فتحدث الأمير عبدالله عن العلاقات المتردية بين والده والسلطات العثمانية.. فأتاح لكتشز أن يفهم من حديثه أنه يحتمل قيام ثورة في الحجاز، إذا نفذ الأتراك عزل والده عن الحكم في الحجاز [1].

وحاول أن يعرف من كتشنر موقف الحكومة البريطانية إذا ما نشب صراع سافر بين الأتراك والعرب، إلا أن كتشنر ردّ عليه دبلوماسياً: "من غير المحتمل أن تتدخل إنجلترا ما دامت سياستها التقليدية هي الصداقة مع تركيا" [2].

وهكذا تفرض بعض الأسئلة نفسها كيف تفجر الموقف السياسي الدولي إلى حرب عالمية أكلت الأخضر واليابس؟ كيف انجرت تركيا إلى هذا الصراع الدولي مع قسوة الظروف المحيطة بها؟ من المسئول عن إشعال فتيل الحرب ؟

كانت البوسنة مصدراً دائماً للمتاعب خلال الحكم العثماني.. وعاصمة البوسنة هي "سيراييفو" وهي مدينة صغيرة تبعثرت بيوتها على ضفة نهر "ملياشكا" الصغير المنحدر من الجبال، ولكنها تختلف عن غيرها من بلاد الصرب الأخرى، بأن أهلها معظمهم من السلاف وأكثرهم من أصل صربي

---

1) جورج أنطونيوس : يقظة العرب، مرجع سابق، ص٢٠٦.

2) نفس المرجع : ص٢٠٦.

وكان ثلثهم من المسلمين وهم من أبناء الملاك الصربيين الذين اعتنقوا الإسلام بعد الفتح الإسلامي. وكانت البوسنة مسرحاً للثورات، ففي عام ١٨٧٥م اشتعلت الثورة ضد الحكم العثماني وأدى ذلك إلى عقد مؤتمر برلين[1]، وفي هذا المؤتمر قررت الدول الكبرى ألا تضع "البوسنة" تحت الحكم العثماني، وهذه الدول هي : الإمبراطورية النمسوية المجرية، وكان "آل هابسبورغ" أباطرة النمسا والمجر، وكانوا قد فقدوا أملاكهم في إيطاليا، فأرادوا استعادة بعض نفوذهم، لذلك لم يجد المؤتمرون في "برلين" حلاً للمشكلة إلا أن تبقى "البوسنة" تحت السيادة العثمانية بالاسم على أن يتولى النمسويون إدارتها فعلاً.

واستمرت السيادة العثمانية اسمياً حتى عام ١٩٠٨م حين قرر زعماء النمسا التخلص منها، فضموا البوسنة إلى النمسا وأحدث ذلك أزمة دولية، وانتهت الأزمة بمعاهدة مع تركيا على النزول من كافة حقوقها وسيادتها في البوسنة مقابل تعويض مالي. إلا أن الضم لم يقر من قبل البرلمان النمساوي وكذلك برلمان هنغاريا، وكان لا بد من إلحاق البوسنة بأحد البلدين (النمسا أو المجر)، وظلت البوسنة معلقة لا تعرف لنفسها كياناً وكان هناك من يديرها، وليس هناك من يملكها.. وبعد أن تنازلت عنها الدولة العثمانية قام "الأرشيدوق فرنزفردیناند" ولي عهد النمسا والمجر بزيارة لمدينة "سيراييفو" في ٢٨ حزيران عام ١٩١٤م، وعند قيامه بجولة في المدينة أطلق عليه النار طالب صربي يدعى "جافر بلوبر نسيب" كما تم اغتيال زوجته أيضاً، وحينما قتل الأرشيدوق، كان في أرض أجنبية لا سلطان له عليها.

---

1) عمر أبو النصر : الحرب العالمية الأولى، موسوعة تاريخية مصورة (مجلة شهرية – عدد ١)، بيروت، المكتب التجاري للطباعة والنشر، ص٥.

وقد اعتبر ذهاب الأرشيدوق إلى سيراييفو بمثابة تحدٍ للقومية الصربية، وكان لانتصار الصرب في حرب البلقان "١٩١١- ١٩١٣م" ونجاحها في تحرير مقدونيا من النفوذ العثماني دفعها للتطلع إلى "البوسنة" فأصبحت هذه الولاية مطمعاً للصربيين. وكان العسكريون في النمسا يقولون بضرورة القضاء على صربيا قبل أن تشكل قوة لها خطرها. وقبل أن تصبح عشاً للدسائس ضد الإمبراطورية النمساوية المجرية، وكانت عصابة "اليد السوداء" الصربية تسعى حثيثاً لعودة المقاطعتين إلى الوطن الأم وكانت الحكومة الصربية تنظر إلى مساعي هذه العصابة وأغراضها بعين العطف والتأييد، خصوصاً وأن الكثيرين من أعضاء هذه الجمعية كانوا من أعضاء الحكومة"[1].

ومهما كانت التحليلات التي ترى أن أوروبا كانت تعيش بسلام لولا الحادث الإجرامي بمقتل ولي عهد النمسا إلا أن من المرجح أن مقتل الأرشيدوق كان القشة التي قصمت ظهر البعير، فالاستعدادات كانت على قدم وساق وأجواء الحرب كانت شبه معلنة.

ومع أن التحقيق الذي أجرته الحكومة النمسوية لم يؤكد تواطؤ الحكومة الصربية مباشرة، وكان للنمسا عذرها في المطالبة بإجراء تحقيق شامل. وكان من واجب الصربيين أن يقوموا بتحقيق كهذا مراعاة لمصالحهم. إلا أنهم لم يقوموا بذلك وثار الهياج الشعبي في كل أنحاء النمسا يطالبون بتأديب صربيا، وفي الثالث والعشرين من شهر تموز من نفس العام أبلغت الحكومة النمسوية بلاغاً نهائياً قال عنه "ألسير إدوارد غراي (وزير

---

1) عمر أبو النصر: الحرب العالمية الأولى ١٩١٤- ١٩١٨، مرجع سابق، ص٧.، ويضيف: أن الضباط الصربيون كانوا في السابق قد قاموا بقتل الملك ألكسندر درغا في بلغراد عام ١٩٠٣ م.. وهم الذين أسسوا جمعية "اليد السوداء" التي كانت متطرفة في وطنيتها.. وبعد الكولونيل "ديمغتريفتش" مدير الاستخبارات الصربية، وكانت الجمعية هذه لها علاقة قوية بالدوائر الحكومية الصربية.

خارجية بريطانيا في ذلك الحين) أنه لم ير قط دولة ترسل إلى دولة مستقلة أخرى إنذاراً مثله في الغضب والخطورة"[1]، وأرسلت الحكومة النمساوية إنذاراً للصرب في وقت كان فيه "بوانكاريه" رئيس جمهورية فرنسا، و"فيفياتي" رئيس وزرائها عائدين من زيارة قاما بها لقيصر روسيا. ووقفت برلين خلف فيينا تشد أزرها، وأنذرت السفن الألمانية باحتمال نشوب حرب، ونبهت سان بطرسبورغ وباريس ولندن، إلى أن أي تدخل من جانبها "بين النمسا وصربيا" سيؤدي إلى عواقب وخيمة.

وحددت الدولة النمساوية ساعة الصفر للحرب في ٣٠ تموز عام ١٩١٤م بعد مضي مدة الإنذار، رغم قبول صربيا سبعاً من النقاط العشر[2] التي حواها الإنذار، ولم يكن من المنتظر أن تقف روسيا مكتوفة الأيدي من هذه الحرب، وكانت ألمانيا ترى أن عملية الاغتيال مروعة وفظيعة، لا يمكن الالتماس لها أي مبرر، لذلك بدأ قيصر ألمانيا يندد بصربيا ويدلي بتصريحات تنم عن رغبته في محوها من الخريطة.

---

1) هـز. ألـ. فيشر: المفاجأة المذهلة: كيف جروا العالم كله إلى حرب مدمرة (مجلة الحرب العالمية الأولى)، مرجع سابق، ص١٦.

2) والنقاط العشر التي عرضتها النمسا على صربيا هي: ١- التعهد بمنع النشرات التي تحرض على كراهية النمسا والمجر. ٢- حل الجمعية التي ينتمي إليها القاتل. ٣- استئصال كل المعارف العامة التي تساعد على دعاية ضد النمسا والمجر. ٤- فصل جميع الضباط والموظفين المدنيين المختصين بالدعاية ضد النمسا والمجر وتقديم أسمائهم لحكومة النمسا. ٥- قبول صربيا مساعدتها من قبل النمسا والمجر على قمع الحركة المضادة للنمسا. ٦- إشراك مندوبين نمساويين في محاكمة من لهم علاقة في اغتيال ولي عهد النمسا. ٧- إلقاء القبض على المأجور فوجاتا نكوستش وميلان سيجانوفيش. ٨- معاقبة موظفي الحدود المتهمين بتسهيل مرور مرتكبي جريمة سيراييفو. ٩- أن تقدم الحكومة الصربية توضيحاً عن سبب تصريحات عدائية لشخصيات رسمية ضد الحكومة النمساوية المجرية. ١٠- إبلاغ الحكومة النمساوية دون إبطاء تنفيذ الإجراءات التي تشتمل عليها البنود السابقة.

ولم تؤيد ألمانيا اقتراح الحكومة البريطانية المقدم في ١٣ تموز ١٩١٤م بأن المهلة المحددة لصربيا يمكن مدها، كما لم تقبل عرض نقاط الخلاف على طاولة مؤتمر يعقد في لندن. لذلك اعتمدت النمسا على ألمانيا من خلال تصريحاتها.. وكانت فرنسا ترغب بعودة منطقتي "الألزاس واللورين"، كما كانت ألمانيا ترغب في امتلاك مستعمرات أكثر والسيطرة على الشرق الأوسط، كما تمنت روسيا امتلاك مضيقي البوسفور والدردنيل.. وكانت رومانيا تريد بنسلفانيا بعد أن تقوم بسلبها من هنغاريا أو انتزاع بسارابيا من روسيا[1].

ومع ذلك كانت كل حكومات دول أوروبا لا ترغب في الحرب عدا دولة النمسا التي كانت تريد تصفية دولة صربيا، وكانت كل دولة من دول أوروبا تؤمن إيماناً قطعياً بعدالة قضيتها.

وبرفض صربيا كل النقاط، أعلنت النمسا قطع علاقاتها مع صربيا، أدى ذلك إلى إعلان صربيا التعبئة العامة.. وأخذت الدول الأوروبية تسعى لإيجاد حل معتدل يوفق بين مطالب النمسا وعدم إذلال صربيا، لكن هذه المساعي لم تكلل بالنجاح، عند ذلك أعلنت النمسا الحرب على صربيا في ٢٧ تموز ١٩١٤م وذلك لقطع الطريق على أية محاولة للتدخل. فأحبطت النمسا مبادرات إنجلترا وروسيا باتخاذ الرد الصربي قاعدة للمفاوضات.. كما بادرت ألمانيا وإنجلترا إلى تقديم عدة مقترحات للمحافظة على سلامة أوروبا وإرضاء النمسا وصربيا في الوقت نفسه.

كانت الحالة الدولية في يوم ٢٩ تموز تعتبر في ألمانيا يوماً حرجاً جداً للغاية.. وكان المستشار الألماني قد حث النمسا على قبول التوسط على قاعدة الوقوف على رد بلغراد.. وكان كل ما يهم المستشار الألماني هو حياد إنجلترا

---

1) هر. أل. فيشر: كيف جروا العالم إلى حرب مدمرة، مرجع سابق، ص١٩.

في حالة التزام إنجلترا عند وقوع الحرب، وقال : "إن ألمانيا مستعدة في حالة التزام إنجلترا الحياد لأن تعطي كل تأكيد بأنها لا ترمي إلى الاستيلاء على أراض أوروبيةعلى حساب فرنسا وإن كان لا يستطيع مثل هذا التأكيد فيما يتعلق ببلجيكا لا يستطيع أن يبوح بالعمليات العسكرية التي ستضطر ألمانيا إلى اتخاذها، ولكن في وسعه أن يؤكد أن سلامة أراضي بلجيكا ستحترم عند انتهاء الحرب على شريطة أن لا تنضم إلى أعداء ألمانيا"[1].

وكان الكونت برشتولد وزير خارجية النمسا يرى في الوقت نفسه ضرورة الاتفاق مع بلغاريا وتركيا واليونان إذا أمكن للقضاء على صربيا كدولة مستقلة في البلقان. وكانت النمسا في هذه المرحلة تسعى وراء الحرب، في الوقت ذاته تعمل على توطيد إمبراطوريتها، ولم يكن ينقذها من الانهيار غير انتصار توطيد دولتها.

وحتى مساء اليوم الخامس من شهر آب ١٩١٤م اشتركت سبع دول هي : "ألمانيا، وفرنسا، وروسيا، والنمسا، وإنجلترا، وبلجيكا، وصربيا".. وكان عدد سكان هذه الدول لا يقل عن (٣٢٥) مليون نسمة، وعدد رجال الحرب أربعين مليون مقاتل.. في الأسابيع الأولى من الحرب دُعي لحمل السلاح ما لا يقل عن اثني عشر مليوناً من المقاتلين الشباب.

كانت تركيا على علاقة حميمة بألمانيا.. وساعدتها ألمانيا في قروضها الخارجية التي طرحتها في الأسواق، كما قام الألمان بإنشاء خطوطها الحديدية، كما استقبلت العاصمة التركية بعثة عسكرية ألمانية لتدريب الجيش العثماني على فنون الحرب الحديثة.. كانت تركيا تخضع لنفوذ حزب الاتحاد والترقي ــ الحزب الحاكم ــ وكانت توجد شخصيات عسكرية تركية تسيطر على مفاصل الدولة التركية وهم : "طلعت باشا،

---

1) عمر أبو النصر : الحرب العالمية الأولى، مرجع سابق، ص٢٩.

وأنور باشا، وجمال باشا" وزاد الحال سوءاً التجاء المطاردين الألمانيين (غوين) و(برسلو) إلى الدردنيل هرباً من الأسطول البريطاني المطارد لهما.

وبدأ الصراع يتطور تدريجياً، حيث اتخذت إنجلترا إجراءات جديدة ضد تركيا، عندما أرسلت إنذاراً نهائياً طلبت فيه منها الاعتذار عن ضرب المرافئ الروسية وتجريد المطاردين الألمانيين من بحارتهما وإخراج أفراد البعثة الألمانية البحرية والحربية من وظائفهم في اثنتي عشرة ساعة، كما أعلنت روسيا الحرب على تركيا بعد انتهاء الإنذار، وغادر العاصمة التركية كل من سفراء إنجلترا وفرنسا وروسيا، ونجح صقور الدولة العثمانية بحمل السلطان العثماني على قبول المشاركة في الحرب مع ألمانيا.

والسؤال الذي يفرض نفسه، ما هي الأسباب التي حملت الدولة العثمانية على المشاركة في الحرب الأوروبية الطاحنة؟.. ويبدو أن حزب الاتحاد والترقي وصقوره، كانوا ينظرون للحرب بعيون الألمان دون أن يدركوا نتائج ذلك على مقدرات دولتهم[1]. بالتالي فقد ارتكب الحزب الحاكم أخطاء كانت سبباً مباشراً في انهيار الدولة العثمانية وتمزقها السريع، وقد علق أحد صقور الجيش العثماني وهو "طلعت باشا" مدافعاً عن رأيه بالقول : "ليست القضية الشرقية قضية إنسانية نصرانية، كما حاولت بعض الدول الأوروبية إظهارها للرأي العام العالمي، وإنما هي قضية عرض ومنفعة لاستعمار الشرق باسم الدفاع عن الإنسانية والنصرانية".وأضاف:"لماذا كانت الدول الغربية تتدخل في شئون تركيا إذا حكمت بالعدل على مسيحي؟ ثم نراها في الوقت نفسه تسكت على الفظائع التي كانت ترتكبها روسيا القيصرية في رعاياها من مسلمين ومسيحيين على السواء.. والسبب واضح ظاهر طبعاً.. فروسيا قوية وهم بحاجة إلى صداقتها.. وتركيا ضعيفة، وأغراض الدول الاستعمارية في

---

1) عمر أبو النصر : الحرب العالمية الأولى، مرجع سابق، ص١٧٦.

بلادها كثيرة، ولهذا كانت الدول الغربية تعمل المستحيل لكي لا يتم إصلاح تركيا.. بل إن كلمة "الإصلاح" التي كانت الدول الغربية تقحمها في المعاهدات التي تعقدها مع تركيا إنما كانت لتبرير تدخل هذه الدول بسياسة تركيا وشؤونها الداخلية في الوقت المناسب"[1].

وكان طلعت باشا يستعيد الذاكرة التاريخية في دعم بعض الدول الأوروبية "تركيا" فهو يرى أنه إذا دافعت دولة من الدول الأوروبية في يوم من الأيام عن تركيا، فليس هذا حباً في تركيا، ولكن لمنع دولة أخرى من الاستيلاء على بعض المناطق التركية.

الدولة العثمانية دولة إسلامية والحرب الكونية الأولى كانت بين دول أوروبا التي اختلفت مصالحهم، ولم يكن للأتراك في الحرب مصلحة محددة، ومع ذلك فقد كان للدولة العثمانية مبرراتها السياسية وتأبطت بمبدأ الجهاد، لكن ضد من.. فهل كان لمبدأ الجهاد رد فعل لدى الرأي العام

---

1) تتفق معظم المعلومات بشأن التحالف التركي الألماني، أن وزير المالية التركي جاويد بك ذهب إلى قصر الصدر الأعظم في ٢ آب ١٩١٤م، وكان قد حضر إلى القصر في هذه الفترة طلعت باشا، وأنور باشا، ورئيس مجلس النواب خليل بك، وكان الصدر الأعظم قد انتهى من كتابة ورقة على مكتبه وسلَّم هذه الورقة إلى المسيو فيبر رئيس تراجمة السفارة الألمانية، فأخذ الورقة وانصرف وكانت الورقة تلك هي معاهدة وقعت باسم جلالة السلطان محمد رشاد الخامس، بانضمام تركيا إلى ألمانيا في الحرب، وفي ٢٨ تموز ١٩١٤م أبرق السفير الألماني في تركيا إلى حكومته بما يأتي: "دعاني الصدر الأعظم سعيد حليم باشا منذ دقائق ورجاني باسم السلطان محمد رشاد أن أعرض على صاحب الجلالة القيصر رغبته في عقد اتفاق سري "هجومي دفاعي" بين تركيا وألمانيا ضد روسيا، ومتى أمضى هذا الاتفاق أمكن تركيا الانضمام إلى الاتفاق الثلاثي. ومن المؤكد أن هذا الاتفاق السري الذي تطلب تركيا عقده.. يصار تنفيذه عند مهاجمة روسيا تركيا أو مهاجمة ألمانيا ويسري مفعوله في الوقت نفسه فيما لو هاجمت روسيا النمسا والمجر، أو فيما إذا هاجمت ألمانيا أو الاتفاق المثلث روسيا، وتركيا لا تطلب حمايتها من أي دولة أخرى غير روسيا"، نظر المرجع السابق، ص١٨٠.

العثماني والإسلامي والعربي؟.. يبدو أن مخالب حكام الدولة العثمانية قد جرحت الكثير من الولايات الخاضعة لنفوذها وخاصة أبناء الولايات العربية. فعندما أعلنت ثورة (تركيا الفتاة) عام ١٩٠٨م وخلع عبدالحميد توقفت فكرة الدعوة للجامعة الإسلامية، وترتب على ذلك قيام الجمعيات العربية المناهضة للنظام العثماني، ونشبت الحرب العالمية الأولى والعالم الإسلامي مغمور في توجهاته السياسية بين المتشبثين بالبقاء تحت النفوذ العثماني مقابل منحهم حق المشاركة في الحكم وآخرين كانوا يزحفون نحو إلخروج عن النفوذ العثماني.. وعندما دعت الدولة العثمانية للجهاد كان السؤال المحوري والمنطقي ضد من ولصالح من ؟

في التاسع من شهر حزيران ١٩١٥م تمكنت سفينة حربية فرنسية من أسر سفينة عثمانية تحمل بعثة عسكرية هامة في طريقها إلى السنوسي، ومعها هدايا تقدر بخمسة آلاف ليرة ذهبية وكتاباً من السلطان محمد رشاد يخبره فيه بأنه أنعم عليه برتبة وزير، ويطلب منه إعلان الجهاد ضد إنجلترا وفرنسا وروسيا دون ذكر إيطاليا.

وفي الخريف من عام ١٩١٥م قام السنوسي بمهاجمة القوات الإنجليزية، وبدأت المعارك بين الأتراك والإنجليز.. وفي بلاد الشام حيث كان الحاكم العسكري " أحد صقور حزب الاتحاد والترقي جمال باشا" والذي ابتدأ عمله بإصدار قرارات صارمة تمثلت بإقامة المشانق من شهر آب عام ١٩١٥م كانت القافلة الأولى من شباب العرب التي علقت على أعواد المشانق في بيروت مكونة من أحد عشر فرداً بتهمة الخيانة، وجرت الإعدامات للقافلة الثانية في خريف عام ١٩١٥م بالعديد من الأحرار والذين كان لهم دور في مناصرته عند قدومه بلاد الشام من ضمنهم صديقه الحميم عبدالكريم خليل وعلق رئيس تحرير مجلة المنار "محمد رشيد رضا" وهو أحد زعماء حزب اللامركزية ما نصه : "كل ما احتج به جمال باشا لسفك الدماء وإجلائه الناس عن أوطانهم

أباطيل.. وقد قتل بعد من ذكرهم في بيان عدداً ليس بقليل، منهم السيد عبدالحميد الزهراوي الشهير، ، وأول أباطيله تسمية القتل برأيه ورأي ديوانه العرفي قصاصاً.. وإنما القصاص في شرع الله أن يقتل الجاني بمن قتله بغير حق، ومعناه في اللغة المساواة والمماثلة"([1]).

لقد كان جمال باشا شكاكاً بمن حوله لذلك كان يميل إلى إلخلاص ممن يعرقل مشروع حزبه وهو استعادة موقع تركيا الإمبراطوري ولو من خلال الحرب الكونية في مواجهة أعداء تركيا التقليديين.

دور العرب في الحرب العالمية الأولى:

تحدثنا سابقاً عن العلاقات العربية التركية كيف ساءت نتيجة سياسة الاتحاديين الحاكمين في استانبول، وتولدت عن تلك السياسة علاقة تنافر بين الطرفين وتشكيك سياسي، وأقام جمال باشا المذابح ضد العرب، وخاصة ممن دارت عليهم الظنون في معارضتهم للحرب والتي لم تكن للعرب فيها لاناقة ولا جمل.

وفي شهر آب/أغسطس عام ١٩١٤م عاد الأمير عبدالله والأمير فيصل من بلاد الشام، وحدثا أباهما عن الاتجاه الواضح عند زعماء الاتحاديين نحو الاشتراك في الحرب إلى جانب ألمانيا ، فأرسل الشريف حسين رسالة إلى السلطان محمد رشاد قال فيها : "تعلمون جلالتكم أن الحرب البلقانية قد انتهت إلى ما انتهت إليه، والدولة الآن في حاجة إلى تجهيزات واستكمالات حربية لم تتم إلى الآن، وأنه في الدخول إلى جانب ألمانيا الخطر العظيم، حيث أسلحة الدولة كلها من ألمانيا وكذلك عتاد هذه الأسلحة، وأن المعامل بالطوبخانة العثمانية لا تكفي إمداد الجيوش بالعتاد اللازم ولا تستطيع إمداد الجيوش بما يمكن أن تخسره من مدافع وأنواع الأسلحة الأخرى عدا هذا

---

1) انظر : عمر أبو النصر : الحرب العالمية الأولى، مرجع سابق،ص٤٢.

فالأقطار المترامية إلى الجنوب من جسم الدولة كالبصرة، واليمن والحجاز، هذه البلاد المحاطة من كل ناحية بقوات مستعدة من الدولة المعادية البحرية ستصبح في أحرج المواقف، وربما اتكلت الدولة في الدفاع على حمية أهلها وهم ليسوا منظمين ولا مسلحين بالشكل الذي يستطيعون معه مقابلة جيوش أوروبا المنظمة.. وأنني استحلف جلالتكم بالله أن لا تدخلوا الحرب وأن تعلموا بأنني اعتقد في كل من يرى الحرب إلى جانب الألمان عدم التمييز والخيانة الكبرى"[1].

ودخلت تركيا الحرب رغم أنف قوى المعارضة من العرب، وحاولت القوات التركية الاستيلاء على مصر أولاً، وخسرت المعركة هناك، فلجأ جمال باشا قائد الجيش الخامس بسوريا إلى إقامة المشانق للعرب وفقاً لمعطيات استخبارية بأن معظم القادة العرب كانوا على علاقة بالسفارة الفرنسية، وصدرت أحكام الإعدام على واحد وعشرين شخصاً وفقاً لأوامر جمال باشا[2].

وفي خضم محن الحرب لم تستطع سوريا وفلسطين تحمل الأعباء الاقتصادية التي فرضتها ظروف الحرب، وشرعت السلطات التركية في نهب السكان الآمنين بصورة مباشرة، فجرت مصادرة شاملة للماشية والمواد الغذائية الخاصة بالفلاحين، وفي عام ١٩١٥م تمت مصادرة الكثير من محاصيل الحبوب في سوريا ولبنان، كما أصاب نظام الري الخراب واستخدم الكثير من الفلاحين في أعمال السخرة، وأجبر آلاف الفلاحين بالقيام بمعظم

---

1) الملك عبدالله : مذكراتي ص٩٨ - ٩٩ : نقلاً عن : سليمان موسى : الحركة العربية ، المرحلة الأولى للنهضة العربية الحديثة (١٩٠٨- ١٩٢٤م) بيروت، دار النهار للنشر، ط٢، ١٩٧٧م، ص٩٥.

2) ساطع الحصري : مجلة العربي (العدد ٣٠ أيار ١٩٦١م) نقلاً عن مذكرات الجنرال على فؤاد، المطبوعة باللغة التركية عام ١٩٥٤م.

الأعمال الاستراتيجية العسكرية.. وتقلصت الزراعة والصناعة تقلصاً كبيراً. ولم تتخذ السلطات التركية أية تدابير ضرورية لمكافحة المجاعة الوشيكة الوقوع، أضف إلى ذلك عملت السلطات على تصدير المواد الغذائية إلى ألمانيا[1].

في الثامن عشر من كانون الأول / ديسمبر ١٩١٤م أعلنت بريطانيا حمايتها على مصر، وفرضت الأحكام العرفية في طول البلاد وعرضها، وفي الحادي والعشرين من سبتمبر أعلنت الحرب على تركيا، وخلعت الخديوي عباس حلمي، وعينت مكانه الأمير حسين كامل ـ عم الخديوي ـ وتولى حكم البلاد بشكل فعلي (السير هنري ماكماهون) وهو السكرتير السياسي السابق لحكومة سمل في الهند بوصفه مندوباً سامياً.. وجند الكثير من العمال المصريين بالقوة، ثم استقال من منصبه وعين مكانه الحاكم العام في السودان سابقاً (السير ريجنلد وينجت)[2]. أدَّت هذه الأوضاع المستجدة في مصر إلى تعاطف ديني وشعبي بين المصريين في مسألة الحرب وخاصة في مواجهة العثمانيين المسلمين، الأمر الذي أدى إلى نفور من القوى الشعبية في مصر ضد الاستعمار البريطاني.

من جهة أخرى كان الشريف حسين في الحجاز قد سعى منذ ربيع ١٩١٤م إلى الاتصال بالبريطانيين في مصر بواسطة ابنه عبدالله في دعمه عسكرياً ضد العثمانيين وحصوله على الاستقلال وتربعه على عرش الخلافة الإسلامية. إلا أن الأمر الذي طمح إليه الشريف حسين تحت حراب البريطانيين ضد العثمانيين لم يكلل بالنجاح فيما بعد ففي تموز/ يوليو١٩١٥م انتهى الشريف حسين إلى أن يكون مستعداً للمفاوضات مع (مكماهون) المندوب السامي

---

1) لوتسكي : تاريخ الأقطار العربية الحديث، بيروت، دار الفارابي،ط١٩٨٠،٧،ص٤٣٩.

2) كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية، ترجمة (نبيه أمين فارس، ومنير البعلبكي)، بيروت، دار العلم للملايين، ط٤، ١٩٦٥م، ص٧٢٢.

البريطاني في مصر.. وتحدث الشريف حسين باسم العرب وطلب من بريطانيا مساعدته على الحصول على الاستقلال في كل المساحة التي يحكمها وتنصيبه خليفة على الرقعة الممتدة من (مرسين إلى أضنة في الشمال الغربي حتى الحدود الفارسية (في الشرق) والمحيط الهندي (في الجنوب) وإذا أعلنت موافقتها على إنشاء خلافة عربية. وأجاب ماكماهون على هذه المذكرة في ٣٠ آب/ أغسطس، مؤكداً أن بريطانيا لا تعارض في انتقال الخلافة إلى رجل ينحدر من سلالة الرسول، ولكنها ترى أن الوقت لم يحن بعد لتعيين الحدود النهائية لدولة عربية مستقلة لا سيما وأن كثيراً من العرب لا يزالون يحاربون في صفوف الأتراك[1].

واستمرت المراسلات بين الطرفين وسميت برسائل (الحسين – مكماهون) والتي تبلورت إلى وعود بريطانية للشريف حسين فيما لو أطلق الرصاصة الأولى على الأتراك، ودخل المعركة ضد الأتراك ولم تفِ بريطانيا بوعودها نحوه.

وبدأت بريطانيا بزرع مناطق صراع في الجزيرة العربية، ففي يوم ٢٦ كانون الأول عام ١٩١٥م تم اللقاء بين الأمير عبدالعزيز بن سعود والمفوض البريطاني (السير برس كوكس) وتم عقد معاهدة مكونة من سبع مواد اعترفت فيها بريطانيا بالأمير عبدالعزيز آل سعود أميراً على نجد والإحساء والقطيف وسواحلها، وتعهدت بمساعدته ضد من يعتدون على أراضيه وحمايته، وبالمقابل تعهد ابن سعود بأن يمتنع عن كل مخابرة أو اتفاق مع أية دولة أجنبية وبأن يتبع بريطانيا ولا يتخلى عن أراضيه. أو منح امتيازات دون رضا الحكومة البريطانية، ويمتنع عن التدخل في شؤون الكويت والبحرين وقطر وعمان وبقية المشيخات التي تشملها بريطانيا بحمايتها.. واعتبر ابن

---

1) نفس المرجع، ص٧٤٤.

سعود هذه الاتفاقية تحالفاً وتبادل منافع.. وقدمت بريطانيا لابن سعود دعماً مادياً "عشرين ألف جنيه استرليني" وألف بندقية، وحددت له مبلغاً شهرياً حوالي خمسة آلاف جنيه، واستمر يدفع له ذلك المبلغ حتى أذار/ مارس ١٩٢٤م [1]، وهكذا أصبحت معظم مناطق الجزيرة العربية مرتبطة بمواثيق حماية مع الحكومة البريطانية عدا الحجاز واليمن وإمارة ابن الرشيد.

ولم يكن الدعم البريطاني سخياً نحو الشريف حسين نظراً لتوجهاته القومية الصرفة، كذلك عملت على دعمه معنوياً عندما انجر للحرب ضد الأتراك[2]. ثم وجد الشريف نفسه محاطاً بأعباء كبيرة وشح العتاد

---

1) سليمان موسى : الحركة العربية، مرجع سابق، ص١٨١.

2) نتيجة التصرفات السيئة لجمال باشا توجه معظم الشباب القوميون العرب إلى مناصرة إنجلترا وفرنسا ولم تدرك بوضوح الخطر المحدق بالعالم الإسلامي من قبل إنجلترا وفرنسا عدا قلة قليلة وتمثلت بعبد الرحمن الشهبندر ومحمد كرد علي وأنصارهما، وآثرت هذه الفئة دعم تركيا تحت شعار الجامعة الإسلامية والمنادية إلى الجهاد المقدس، ومع ذالك فقد تصدعت هذه الجبهة الملتحمة مع الأتراك في ربيع ١٩١٥م نتيجة السياسة السوفيتية التركية والجوع واتجاهات الجماهير العربية ضد الحرب كل ذلك بدد الأوهام التي بناها الشهبندر وأنصاره على العثمانيين. وفي الوقت نفسه كان قادة حزب اللامركزية المجتمعون في القاهرة يدعون إلى الانفصال النهائي عن تركيا، وأرسلوا بعضاً من أنصارهم إلى سوريا وفلسطين، كما وزعت الطائرات البريطانية المنشورات السياسية التي دعت العرب إلى الفرار من الجندية وعدم دفع الضرائب وغير ذلك.. ولقيت تلك الدعايات ضد تركيا صدى أكبر بين السكان العرب، فلجأ جمال باشا إلى تشديد الرقابة على من تدور حولهم الشكوك، ونجح في عام ١٩١٦م في تسديد ضربات قاضية على الحركات الوطنية العربية بتهمة الاتصال بالبريطانيين والفرنسيين.. وحتى منتصف عام ١٩١٦م بلغ عدد من تم إعدامهم شنقاً أكثر من ثمانمائة شخصية نشيطة من مختلف التجمعات الحزبية السياسية العربية. كما تم إبعاد عشرات الآلاف إلى المعتقلات الصحراوية. [انظر : لوتسكي : مرجع سابق،ص٤٤٢- ٤٤٣]، ونجح جمال باشا بإبادة قادتها البارزين سواءً في لبنان أو سوريا وفلسطين والعراق. في الوقت ذاته بادر عبدالرحمن الشهبندر إلى الفرار من دمشق سيراً على قدميه فوصل إلى البصرة بعد رحلة

العسكري لديه، حيث أصبح في نهاية ١٩١٦م بندقية واحدة لكل خمسة من محاربي قوات الأمير فيصل والأمير زيد، وبدلاً من دعمه عسكرياً بعثت إليه بريطانيا وفرنسا مستشارين من البريطانيين والفرنسيين، وأغلبهم مرتبطون بالمخابرات الإنجليزية والفرنسية، وعندما حاول الشريف حسين التأكيد على الخلافة العربية عقد في تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩١٦م اجتماعاً للوجهاء من القبائل العربية وبايعوه ملكاً على الأمة العربية. وطبقاً للتقاليد في هذه المناصب عين ابنه علي رئيساً للوزراء، وعبدالله وزيراً للخارجية، وأعلن عن الدولة العربية المستقلة، فأرسل إليه مكماهون رسالة أعرب فيها عن عدم ارتياحه مما نشر لدى حكومة إنجلترا وفرنسا من إنشاء المملكة العربية، وأعلنت بريطانيا وفرنسا عدم اعترافها بتلك الدولة ولقب الحسين الجديد، وأنهما لا تميلان إلى اعتبار الحكومة الهاشمية حكومة تمثل كل العرب في الدولة العثمانية، ومن ثم تمت تسوية الخلاف بين الحسين وبريطانيا على اعترافهما بالحسين ملكاً على الحجاز فقط[1].

ومع بداية الحرب بدأت الدول الكبرى تناقش غنائم الحرب وتتطلع إلى التهام كل ممتلكات الدولة العثمانية، لذلك اتصلت إنجلترا بالروس للتفاوض حول المضايق البحرية.. وقام "سازونوف" وزير خارجية روسيا بتقديم رسالة في ٤ مارس ١٩١٥م إلى السفيرين البريطاني والفرنسي في بطرسبورغ تضمنت مقترحاً عليها تزويده بموافقة خطية على تقديم المضايق إلى روسيا.

استغرقت ثلاثة أشهر وعندما قدم الشهبندر نفسه "لبرس كوكس" رفض هذا إبقاءه في العراق وطلب إليه التوجه نحو مصر ويلحق بأصدقائه هناك، وسافر عن طريق الهند ووصل إلى مصر في كانون الأول عام ١٩١٥م. [انظر : سليمان موسى : الحركة العربية، مرجع سابق، ص١٦٣].

1) لوتسكي : تاريخ الأقطار العربية الحديث، مرجع سابق، ص٤٥٨.

تقبل الحلفاء هذا الاقتراح بكل سرور وخاصة الفرنسيون الذين أعلنوا عن موافقتهم على المطالب الروسية مقابل موافقة الأخيرة بالاعتراف بحق فرنسا في سوريا ولبنان وكيليكية، وتصرفت إنجلترا بحذر شديد، إذ أنها طالبت بأن تؤخذ اعتبارات خاصة في المستقبل في قضية تأسيس دولة عربية وتحديد حدودها.

وفي العاشر من شهر أبريل ١٩١٥م وقعت اتفاقية بين إنجلترا وفرنسا و روسيا تعين بموجبها منح المضايق لروسيا، والنظر في تكوين دولة إسلامية مستقلة في الجزيرة العربية، وفيما يتعلق بمصير سوريا وفلسطين بقيت معلقة. وأجريت مفاوضات إضافية حول هذه القضية بين إنجلترا وفرنسا في نهاية عام ١٩١٥م، وبداية عام ١٩١٦.. وعندما تعرضت القفقاز لهجوم روسي في مطلع ١٩١٦م تم الإسراع في إنهاء المفاوضات.. فوافقت إنجلترا على التنازل إلى فرنسا عن الأراضي الواقعة غرب خط حلب ـ حماه ـ حمص ـ دمشق، وأصر الفرنسيون على اعتبار هذه المنطقة مستعمرة فرنسية مقبلة، وتكون شرقي سوريا منطقة نفوذ فرنسية[1].

وقبيل ذلك كانت روسيا القيصرية قد تقدمت بمقترح جديد في المسألة العربية.. يقضي المقترح بإجراء مفاوضات سرية مع جمال باشا، لأن المعلومات لدى روسيا باحتدام نزاع بين جمال باشا والباب العالي وبالتالي يمكن إقناع جمال باشا بالتعاون مع الحلفاء مقابل جعل جمال باشا على رأس دولة مستقلة تتكون من ستة ولايات ذات حكم ذاتي منها أربع ولايات عربية.. إلا أن الدول الغربية لم تكن مستعدة إطلاقاً لتقديم البلدان العربية إلى جمال باشا.

ولهذا أعلنت فرنسا عدم إمكانية تحقيق هذه الخطة كما أعلنت إنجلترا رفضها لهذا المقترح، وفي مارس ١٩١٦م قدم إلى عاصمة روسيا المبعوثان

---

1) لوتسكي : نفس المرجع، ص٤٦١.

الخاصان (سايكس عن إنجلترا.. وبيكو عن فرنسا) واتفق الطرفان على وضع اتفاقية تحدد طبيعة التقاسم وسميت بمعاهدة سايكس بيكو.

ومع مطلع عام ١٩١٧م رأت بريطانيا وفرنسا إرسال بعثتين سياسيتين إحداهما بريطانية برئاسة سايكس والأخرى فرنسية برئاسة بيكو، للالتحاق بقيادة الجيش الإنجليزي من أجل القيام باتصالات مع سكان البلاد في كل من سوريا ولبنان ومصر.. وفي السادس من شهر مارس من نفس العام أبلغت وزارة الخارجية المندوب السامي البريطاني في القاهرة بقرب وصول البعثة بحيث أن سايكس سوف يتحدث مع الزعماء السوريين في القاهرة ويجري سايكس حديثاً مع المهاجرين السوريين لذلك رأى الحاكم البريطاني في مصر "وينجت" ضرورة إبلاغ الملك حسين بمضمون الاتفاقية.. وفي ١٩ مارس ١٩١٧م أبلغ الملك برسالة من "وينجت" تقول إنه بالنظر لطرد الأتراك من سيناء فإن حكومتي بريطانيا وفرنسا عينتا ضابطين سياسيين لمساعدة القائد العام البريطاني في علاقته مع الأهلين وراء الحدود المصرية وتطلب الحكومتان من الملك أن يرشح ممثلاً عنه لمرافقة هذه الهيئة السياسية.. وبعث ولسون مع هذه الرسالة، رسالة خاصة إلى الشريف حسين قال فيها : "إن المندوب البريطاني هو السير مارك سايكس الذي يضع مصالح العرب قريباً جداً من قلبه،و الذي يعرف كل الترتيبات التي وضعت بين الحكومة البريطانية وجلالتك بشأن المملكة العربية"[1].

وأجاب الملك معبراً عن سروره على أن هذا يبرهن أن بريطانيا تعمل على مساعدة الأمة العربية، وهكذا لم يبلغ الشريف حسين فعلياً بحقيقة اتفاقية (سايكس ـ بيكو) لأن الرسائل تضمنت دعم بريطانيا وفرنسا للثورة العربية والبحث عن مستقبل سوريا.

---

1) سليمان موسى : الحركة العربية، مرجع سابق، ص٣٥١.

وفي ٩ أبريل اجتمع الشريف حسين مع ولسن وطالب من الحكومة البريطانية أن تثق به مثلما يثق هو بها.. وأجاب ولسن أن القصد من ذلك هو مساعدته وليس له علم بالاتفاقية البريطانية الفرنسية.. وكان بيكو قد اجتمع مع السوريين واللبنانيين وقال فيهم : "إن جميع دول الحلفاء قد انتخبوا فرنسا وصية على لبنان [1].. ويعد هذا أول بيان علني يتعلق بخطة دولة أجنبية للاستيلاء على جزء من أراضيهم[2] ولم تكن نية بريطانيا وفرنسا حسنة تجاه دولة الوهم العربي للشريف حسين، فقد أوهم الشريف حسين نفسه ولم يكن يمتلك ـ بعد دخوله الحرب ـ قدرة اتخاذ القرار في مسألة دولته المنشودة.

نتائج الحرب العالمية الأولى في المناطق العربية:

بعد إعلان وقف طبول الحرب بدأ المنتصرون يوزعون غنائم الحرب من خلال مبدأ ـ خارج نطاق توجهات منظومة عصبة الأمم المتحدة ـ الانتداب على المناطق التي خاض رجالها حروباً قوية مشتركة مع إنجلترا وفرنسا من أجل تحقيق الاستقلال، فإذا بهذه المناطق أصبحت تحت نطاق الدولتين اللتين كانتا تزعمان أنهما تقاتلان من أجل حرية أبناء بلاد الشام والعراق.. وسقطت بلاد الشام ومنها شرق الأردن وفلسطين تحت الانتداب البريطاني.. أضف إلى ذلك بلاد الرافدين (العراق).. أما سوريا ولبنان فقد فرضت عليها فرنسا الانتداب.. واقتطعت لواء الإسكندرون السوري لصالح تركيا.. وبدأت إنجلترا وفرنسا تعملان على استئصال فكرة الوحدة العربية والتي كرس لها المثقفون الشاميون جل جهدهم من خلال أطروحاتهم الفكرية القومية.

وبدأ الاستعمار البريطاني الفرنسي في وضع خريطة لتقسيم الوطن العربي وفقاً لتصور مستقبلي يكون أزلياً لا فكاك منه.. وعلى ضوء هذا التصور

---

1) نفس المرجع : ص٣٥٣.

2) نفس المرجع : ص٣٥٣.

وضع الاستعمار عقبات لا يمكن اجتيازها أمام تصور وحدوي مستقبلي.. ووضعت لكل دولة خارطة مستقبلها وأوجدت لها رجالاً موالين لها يعملون وفقاً لما يمليه عليهم الاستعمار.. ولذلك فقد بدأت الرؤى الفكرية في الساحة العربية تناقش قضايا قومية من الصعب تحقيقها في وضعية الشأن العربي والإسلامي.. كالدعوة للوحدة الإسلامية.. والمواجهة لها، الدعوة إلى القومية العربية... وبدأ التنظير الفكري يمخر عبابه ويبادر الاستعمار من وراء الستار يعمل على قبول الفكرتين وفي الوقت ذاته يحارب الفكرتين.. ونشط المثقفون في مصر وبلاد الشام والعراق والجزيرة العربية، لإبداء روح الترويض بقبول فكرة التوجه سواء القومي أو الإسلامي دون القبول للحوار والنقاش.. فاكتسبت المواقف السياسية صلابتها في مربع خارطة التجزئة العربية.

ونشط بعض المثقفين في مصر في الدعوة للهجة العامية بدلاً عن الفصحى العربية.. وأبرز هؤلاء سلامة موسى.. والدعوة إلى خصوصية القطرية الحضارية.. كالحضارة الفرعونية في مصر.. والفينيقية والآشورية في بلاد الشام.. وكرس الاستعمار جهوده في سبيل تلك الخصوصيات التي تثبت المفاصلة بينها وبين العروبة.. وتكريسها ثقافياً.

وكان لهذا أثره الكبير في ولادة توجه إسلامي يحمل مشروعاً سياسياً ودينياً بغرض مواجهة المعاقين فكرياً في الداخل والاستعمار الأوروبي والذي يفرض هيمنته ورؤاه.

خلاصة القول : إن الفترة التاريخية التي عاشتها الأمة الإسلامية منذ بداية القرن ١٩م وحتى الثلث الأول من القرن العشرين كانت عصيبة للغاية فقد تمحورت في تكتلات أوروبية ضد الدولة العثمانية التي تبسط نفوذها على العالم العربي كله، وتطلعت الدولة العثمانية منذ ذلك الحين إلى تحقيق إصلاحات على غرار الدول الأوروبية، ومنحت الدول الأجنبية امتيازات تجارية مما جعل الأوروبيين يسارعون بالعمل على فرض هيمنتهم على شمال أفريقيا

وجنوب البحر الأحمر ـ جنوب اليمن ـ وشمال البحر الأحمر ـ مصر ـ كما نشط الاستعمار على إثارة النزعات العرقية والطائفية في اليونان، والبوسنة والهرسك، وغيرها من المناطق الأوروبية التي كانت تخضع للنفوذ العثماني، ونجح الأوروبيون في تشجيع النزعة "التتريكية" بين العسكريين الذين تلقوا تعليمهم في أوروبا، مما أثار عرب الشام بوجه خاص وولدت فيهم فكرة القومية العربية لمناهضة العثمانيين.. وشجع الاستعمار أنصار هذا الاتجاه أكثر على الانفتاح الثقافي الأوروبي.. وعبث المستشرقون الأوروبيون كثيراً بالتراث الفكري الإسلامي.. وأوجدوا لغة التشكيك في الفكر الإسلامي.

ودخلت الدولة العثمانية معمعة الحرب العالمية الأولى وخسرت العالم العربي كله.. وقسم المنتصرون غنيمة الحرب، وقطعت أوصال العالم العربي إلى دويلات صغيرة.. وأغرت أنصارها من العرب على ضرورة العودة إلى النزعة الإقليمية.. واستعمال اللهجة العامية.. وهكذا نجح الاستعمار في نزع الثقة في النفس، وسلب الإرادة العربية وجعل العرب يمتنون كثيراً للفكر الأوروبي المنتج للتكنولجيا.

قاوم العرب كثيراً المستعمرين باتجاهين (الديني والقومي).. وقسم المنتصرون في الحرب العالمية الثانية فلسطين إلى قسمين، القسم الأول : لإسرائيل ومنحها كامل ضمانات البقاء والقوة، والقسم الثاني : للعرب الفلسطينيين، وعمل الاستعمار البريطاني على التنكيل بهم وشرذمتهم وتفكيك قدراتهم وإجهاض مشروع دولتهم بالتعاون مع اليهود الإسرائيليين والصهيونية العالمية.

وكانت كل هذه الهموم كفيلة لمحاولة قيادات فكرية إسلامية لتشكيل تيار إسلامي لمواجهة الاستعمار العسكري والثقافي.. وسوف نناقش في الفصول التالية المشاريع السياسية من خلال برامج وأفكار التيارات الإسلامية المناهضة لكل ملامح التغريب والأيديولوجيات الوافدة..